

السنة الثالثة العدد ٣٤ مايو ٢٠٢٠
كلمة حق
رمضان
وعُدَّة الصابرين
جولة في علم النفس والاجتماع من سورة سبأ
محمد إلهامي
العمل الخيري بين الرسالية والوظيفيّة (٠١)
الصغير منير
ملف: أوراق أفغانية..التاريخ السري للحرب..عالقون بلا استراتيجية (ج٣)
حامد عبدالعظيم
الحجر الصحي في السنة النبوية
أ.د.رشيد كهوس
الجهاد في السعودية
قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب
أحمد الحمدان
وغيرها من المقالات ..

محتويات العدد ٤٣

مايــو ٢٠٢٠



klmtuhaq
دورية ثقافية معرفية
نخبة من الكتاب والمفكرين

المشرف العام
محمد إلهامي

مديـــر التحـــرير
حامد عبدالعظيم



ترحب مجلة كلمة حق
باستقبال مقالات القراء ،
إذ تعمل هيئة التحرير على فرزها
ونشر المتميز منها في كل عدد جديد ،
يُرجى إرسال المقالات على البريد التالي
Klmtuhaq@gmail.com
كلمة حق
klmtuhaq

الافتتاحية

جولة في علم النفس والاجتماع
من سورة سبأ

محمد إلهامي



منذ أكثر من سنة، أجدني كلما مررتُ بسورة سبأ منجذباً بقوة إلى أن هذه السورة تحفل بالإشارات والمعاني التي نطلق عليها الآن «علم الاجتماع السياسي»، فكثير من آياتها تتناول مسائل السلطة والترف ونفسية المتسلطين المترفين، وكذلك نفسية التابعين المنبهرين الذين ينجذبون لمعاني القوة والغنى، كما تقدم الحل لهؤلاء التابعين لينقذوا أنفسهم من سطوة الغالب وسطوة الثقافة السائدة الغالبة.

وما زلتُ أقدم رجلاً وأؤخر أخرى في أن أخوض هذا الأمر، لا سيما بعد أن تجولت في التفاسير فانتفعت بشذرات من هنا وهناك دون أن أجد أحداً فتح هذا المعنى أو ولج هذا الباب، حتى إذا مررتُ بها في شهر رمضان وجدت في نفسي عزماً أن أكتب ما جال في خاطري، واضعاً ذلك أمام أهل العلم والمتخصصين، فإما أن يكون فيه نفع فحسبي منه هذا، وإما أن يردوا علي ما أقول فلا أجد في نفسي حرجاً من تمزيقه وإهماله.

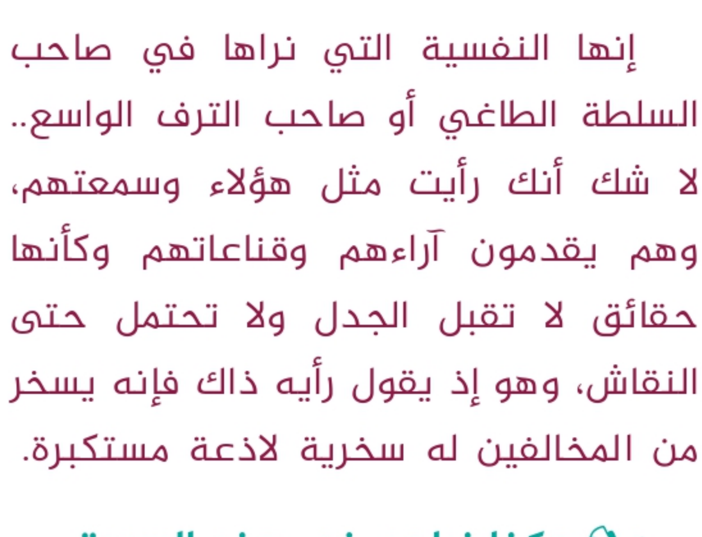
إنني أجد في نفسي شعوراً قوياً غالباً أن هذا المعنى يجعل السورة تستقيم على هيئة واحدة في نفسي، ولولا أن الأمر بلغ من نفسي مبلغه من الوضوح والقوة لما تجرأت عليه، فأسأل الله أن يعين ويسدد، كما أسأله تعالى أن يغفر ويرحم.

(١)

سرد القرآن الكريم كثيراً حجج الكافرين في إنكار النبوة والبعث، وكيف أنهم يتحججون على هذا بحجج متهافتة كأن يقولوا:كيف بعد أن نكون تراباً نبعث مرة أخرى؟ وكيف يؤمن أراذل الناس ولا نؤمن نحن أصحاب العقول والحكمة؟ ولماذا لم ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم؟ وما رأيك أن تفجر لنا الينابيع وتبني لنفسك القصور وتصطحب معك الملائكة ونحن نؤمن بك.. ونحو هذه الحجج الكثيرة.

لكن في هذه السورة نجد أنفسنا أمام نفسية أخرى، إنها نفسية المستكبر الساخر المتأفف الذي يقطع برأيه ووجهة نظره دون أن يحاول تقديم حجة مقنعة، بل دون أن يبحث عن حجة، إنه يقرر آراءه كأنها حقائق من غير أن يكلف نفسه إثباتها أو الاحتجاج لها.. لذلك ترى عباراته قصيرة، قاطعة، حاسمة، يقولها صاحبها كأنه يختم الكلام وينهيه ويفصل فيه!





إنها النفسية التي نراها في صاحب السلطة الطاغي أو صاحب الترف الواسع.. لا شك أنك رأيت مثل هؤلاء وسمعتهم، وهم يقدمون آراءهم وقناعاتهم وكأنها حقائق لا تقبل الجدل ولا تحتمل حتى النقاش، وهو إذ يقول رأيه ذاك فإنه يسخر من المخالفين له سخرية لاذعة مستكبرة.

هكذا نراهم في هذه السورة..

(وقال الذين كفروا: لا تأتينا الساعة).. ولم يقولوا لماذا وصلوا إلى هذه القناعة؟

(وقال الذين كفروا: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه)

(وقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذَبين)

(وإذا تُتلى عليهم آياتنا بينات قالوا: ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم، وقالوا: ما هذا إلا سحر مفترَى، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم: إنْ هذا إلا سحر مبين).

وجاء في السورة مَثَلٌ من سخريتهم:

(وقال الذين كفروا: هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزِّقتم كل مُمَزَّق إنكم لفي خلق جديد * أَفْتَرَى على الله كذباً أم به جِنَّة؟!)

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟!)

ثم يجمل القرآن هذه الظاهرة فيكشف أنها سنة مضطردة مستمرة، أهل الترف والسلطان هم خصوم المرسلين: (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون).

ثم يكشف القرآن عن اللحظة التي يؤمن فيها هؤلاء، إنهم لا يؤمنون إلا حين حين ينقضي الوقت وتفوت الفرصة، حينما ينهار السلطان ويأتي الفزع، حين تنكسر قوتهم أمام القوة العليا، قوة الله تعالى: (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأُخِذوا من مكان قريب * وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد * وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد).

◆ ومن العجيب في هذا الموطن أن القرآن الكريم عبَّر عن عقوبتهم تعبيراً مثيراً للتأمل، وذلك هو قوله تعالى (وَحِيل بينهم وبين ما يشتهون)، فكأن أبلغ العقوبة هي منعهم من التمتع والتنعم بما كانوا فيه من أنواع الشهوات، حتى لو لم ينزل بهم العذاب.. وهذا أمرٌ نراه ونبصره فيما نرى ونقرأ ونسمع عن المترفين الذين تقلبت بهم الأيام أو عن الملوك الذين خُلِعوا من الحكم ونُزِعوا من السلطة، إنهم حتى لو لم يدركهم الفقر والسجن والذل يظلون في عذاب مرير، إذ لا شيء يُعوض لذة السلطان أو لذة الترف، كما قال الشاعر:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا .. إذا نحن فيهم سوقة نتنصَّف

فهذي مقالة من هبط عن الجاه والسلطان، فصار مساوياً للناس، لا هو ذليل ولا هو سجين، إلا أنه يبكي على حال صار فيه مثل الناس، يملكون أن يشتكوه ويقاضوه، من بعد ما كان هو الآمر الناهي السائس الحاكم عليهم.

(٢)

◆ وفي المقابل نجد أن الرد القرآني عليهم يأتي في صيغة صاعقة هائلة القوة، تضرب أصل كبريائهم وتنسف أساس قوتهم، فلم يكن الرد القرآني عليهم ردًّا يجادل بالحجة، إذ هؤلاء لم يتكلموا بالحجة أصلاً، ولم يكن ردُّ القرآن هنا يخاطب العقل بل يقتحم النفس المتجبرة، وإنك لترى الآيات وهي كالعاصفة تهوي بهم، وتُخاطبهم خطاب الإله القوي القادر القاهر، المحيط بكل شيء علماً، القادر على كل شيء، الذي لا يقف أمامه شيء، الإله الذي يتصرف بهذا

الكون كله تصرفاً لا معقب له، الإله الذي أعطى بعض عباده أوسع وأقوى مما يتجبر به هؤلاء، ثم هو الإله الذي أهلك من تكبر مهما كانوا أقوى وأعظم من هؤلاء..

سأختار بعضاً قليلاً من هذه الآيات، فتأمل، واستمع:

١. أخبر الله تعالى عن علمه المحيط الشامل الواسع فقال:

(الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير)

(يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها)

٢. وأخبر تعالى عن قدرته الهائلة، وضعفهم المزري، فقال:

(إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء)

(فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق)

(وكذَّب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم، فكذبوا رسلي، فكيف كان نكير!)

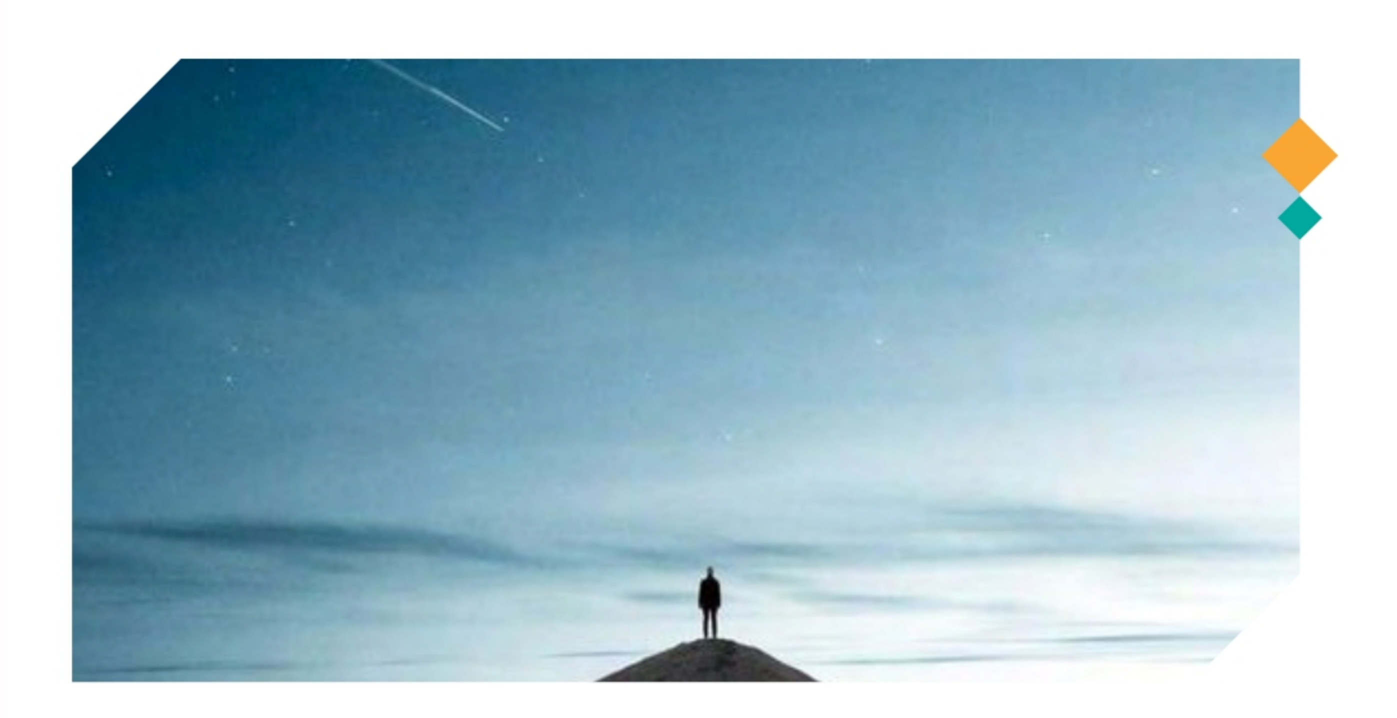
(قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ۞ قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد)

٣. وردَّ الله على أقوالهم الساخرة ردوداً لا تتناول الحجة -إذ لا حجة أصلاً- بل تضرب الكبر الذي أخرج هذه الأقوال:

(وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة، قل: بلى وربي لتأتينكم. عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين)

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون)

(وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه. ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استُضْعِفوا: لولا أنتم لكنا مؤمنين)



٤. ولقد تعددت الآيات التي نزع الله فيها منهم كل شيء، حتى لم يعد لهم لا شأن ولا قيمة:

فقد نزع منهم حقيقة امتلاكهم لشئ في قوله: (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله، لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير)

ونزع منهم قيمتهم وقدرتهم على النفع لأحد (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)

ونزع قيمة كثرة الأموال والأولاد (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى)

(٣)

ذُكِرت في هذه السورة قصتان: قصة داود وسليمان عليهما السلام، وقصة قوم سبأ..

وكلا القصتين يجمع بينهما معنى الترف والسلطة، إلا أن الأولى مثال للصالحين إذا آتاهم الله المال والسلطان، والأخرى مثالٌ للمتكبرين..

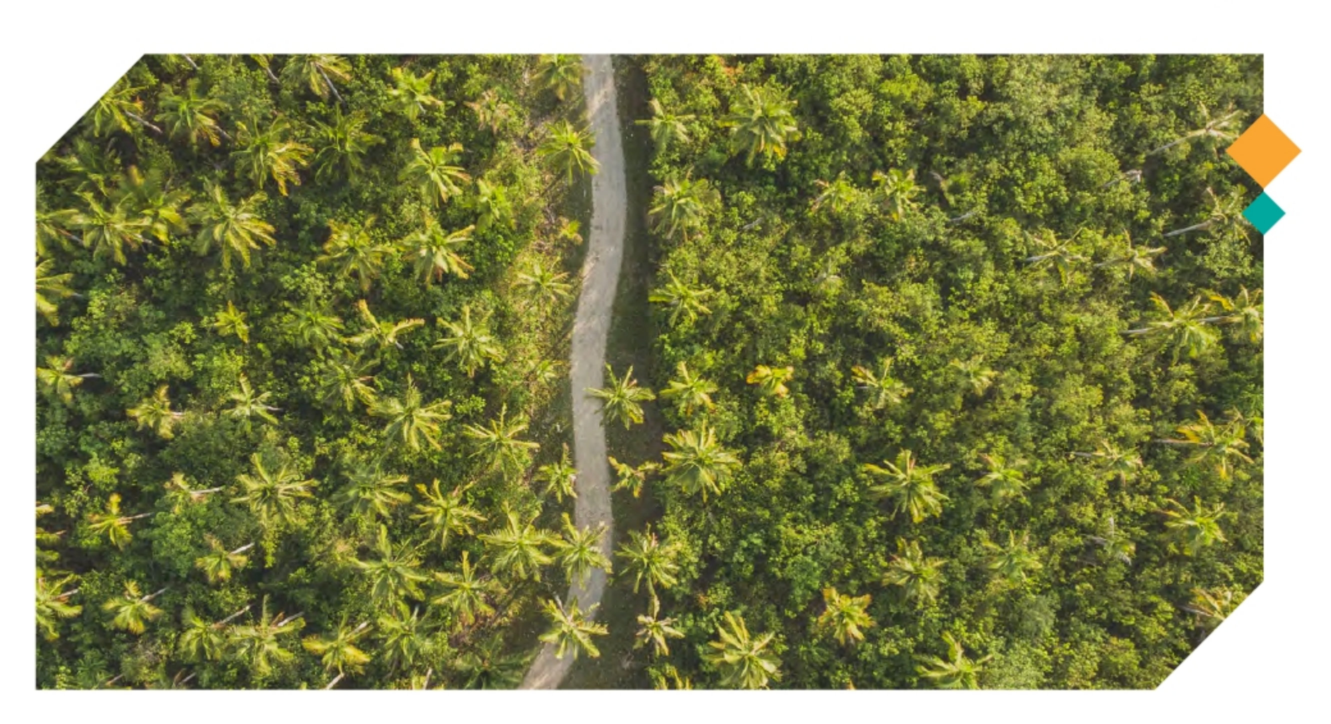
◆ لقد أوتي داود وسليمان ما لن يبلغه أحدٌ من العالمين، لقد أمر الله الجبال والطيور أن تتجاوب مع داود في التسبيح فكان يسمع تسبيحها، وألان الله لداود الحديد، وقد ورد في التفاسير أنه كان يشكله بيده كما يُشَكِّل الأطفال قطع الصلصال، وأما سليمان فقد سَخَّر الله له الريح تحمله وتنقله مسافة الشهر في بضع ساعات، وأسال له النحاس، وسَخَّر له الجنَّ يعملون بأمره ويرتعدون من هيبته!

تلك سلطة لم يؤتها أحد ولن يؤتاها أحد، ولا حتى القوى العظمى في عصرنا أو ما بعده، ولئن أتيح للقوى الصناعية في عصرنا أن تصنع وتستفيد من الحديد والنحاس والمعادن، فأين هذا من معنى التسخير الذي هو خضوع هذه المواد لصانعها؟.. إنه ما من قوة عظمى إلا وهي تتخذ من وسائل التأمين والحماية لكل اكتشاف خشية أن ينفجر فيها أو يرتد عليها أو ينفلت من تحكمها.. ثم أين هي القوة العظمى التي يمكن أن تُسَخِّر الجن؟!

ومع هذا السلطان الضخم غير المسبوق ولا الملحوق فإن داود وسليمان كانا مثالاً للعبد الصالح الذي يخضع لله ويعمل بأمره ويشكر له.

◆ وأما قوم سبأ، فإنهم قد وجدوا أنفسهم في سعة ونعيم حتى إن مساكنهم كانت آية تحوطها الجنان، وحتى إن المسافة التي بينهم وبين مقاصد سفرهم كانت عامرة بالقرى التي تجعل سفرهم نزهة سعيدة لا يحتاجون فيها إلى حمل أمتعة أو التزود بطعام وشراب.. فماذا كان؟!

كان أن تكبر المترفون منهم وسألوا الله أن يباعد بين أسفارهم، وذكر بعض المفسرين صراحة أنهم دعوا الله لكي «يتطاولوا على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد والماء»، فهنا ترى بوضوح نموذجاً متكرراً من نفسية المترفين وأصحاب السلطان، إنهم لا يحبون أن يكونوا في مساواة مع الناس ولو في الخير، إنما يحبون التميز عنهم ولو كان الثمن هو التعب والضنك وأن يعمَّ الناس الفقر!



هو والله مشهد يُذَكِّرنا بالذي يموت الناس في بلاده من الفقر والمرض والحاجة بينما همُّه وهمّته في بناء القصور الرئاسية والملكية، وشراء الطائرات الفاخرة واليخوت الفارهة والسيارات العجيبة الغريبة! هذا مع أنه غير محتاج لكل هذا فعنده منها ومن أمثالها الكثير، فماذا عليه لو أغنى الناس وصار مثلهم؟!.. هذا أمرٌ يقول به العقل ولكن ترفضه نفسية المترف المتكبر!

فعاقب الله سبأ بتبدل الأحوال، وانقلاب الجنان العامرة والقرى الظاهرة.. جاءهم سيل العرم فحطَّم هذا كله، ومزَّقهم، وجعلهم أحاديث.. جعلهم تاريخاً، وضرب المثل بهم في التمزق فقيل «تفرقوا أيدي سبأ»!!

(٤)

◆ إن أهل الترف والسلطان هم أقل الناس شكراً مع أنهم أوسع الناس حظاً من النعمة والتنعم، لهذا نبَّه الله تعالى على قلة الشاكرين، فقال تعالى: **(وقليل من عبادي الشكور).**

وإنهم مع ما هم فيه من الترف والنعيم ينطوون على البخل والإمساك، لذلك تعددت الآيات في شأن المال وأن الذي يملكه ويرزقه وينزله ويقبضه ويعوض عنه هو الله تعالى:

فقال تعالى عن المؤمنين: **(لهم مغفرة ورزق كريم)**.

وضرب المثل بقصة داود وسليمان وما آتاهما الله من الرزق الواسع والملك العريض

وقال تعالى: **(قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله).**

وقال تعالى: **(قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون).**

وكررها مرة أخرى بعد أربعة أسطر فقط فقال: **(قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له، وما أنفقتم من شيء فهو يُخلفه، وهو خير الرازقين).**

◆ ثم إنهم مع ما هم فيه من السعة والسلطان يتحسسون من كل داعية، يحسبون أنه يريد هدم مكانتهم ونفوذهم وأن يحل مكانهم ويقوض شأنهم، ولا يصدقون أن أحداً قد يدعوهم لدعوة هي لصالحهم وفيها خيرهم ونجاتهم، وليس له فيها من غرض، وما ذلك إلا لأنهم أنفقوا في تحصيل هذا الترف والسلطان من وسائل المكر والمخادعة والتلاعب والمناورة وأفانين السوء ما صاروا معه يحسبون كل صيحة عليهم، لسان حالهم كما قال المتنبي:

إذا ساء فِعل المرء ساءت ظنونه .. وصدَّق ما يعتاده من تَوَهُّمِ
وعادى محبيه بقول عُداته .. وأصبح في بحر من الشكّ مُظْلِم

ونجد هذا المدخل النفسي لديهم في قول الله تعالى موجهاً نبيه: (قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم، إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد).

◆ ومن العجيب اللافت للنظر أن بقايا من الكبر والسطوة ستبقى موجودة في نفوسهم حتى حين يحضرون العذاب، فلهذا عاقبهم الله بالإهانة فوق عقابه لهم بالعذاب، (وأَسَرُّوا الندامة لما رأوا العذاب، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا، هل يُجزَون إلا ما كانوا يعملون؟).

(٥)

وفيما يتعلق بالإهانة أيضاً، فإنه مما يلفت النظر في هذه السورة تكرار قول الله عز وجل الحديث عن أولئك القوم الذين يعملون على إبطال آيات الله وتعجيزاً لها (والذين سعَوا في آياتنا معاجزين)، ففي أول السورة قال تعالى: (والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم)، وفي أواخرها قال تعالى: (والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون). ويُرى في ختام الآيتيْن معنى الإهانة بالإضافة إلى معنى العذاب:

◆ فهو في الآية الأولى (عذابٌ من رجز أليم) وليس عذاباً أليماً فحسب، والرجز -كما يفيد المفسرون وعلماء اللغة- يشتمل على معنى الاضطراب والاهتزاز والارتجاف وذلك لأن أصله مرض يصيب الناقة فيجعلها تضطرب وتهتز، ويفيد كذلك معنى الحمل الثقيل الذي يهتز ويضطرب من يحمله، كما يفيد معنى القَذَر الذي هو قريب من لفظ «الرجس»، فهو أسوأ العذاب[1].

---

(١) للتوسع في معنى الرجز، انظر: د. أحمد عبيد الكبيسي، موسوعة «الكلمة وأخواتها» في القرآن الكريم، ط١ (بيروت: دار المعرفة، ٢٠١٧م)، ٥/٥٧ وما بعدها.

وهو في الآية الثانية يتحدث عن أنهم (مُحْضَرون)، فهم يُساقون ويُوقفون ويُقامون، لا سلطة لهم ولا إرادة لهم في أنفسهم، ولا قدرة لهم على الامتناع والمقاومة والاستنكار.. فيتمّ بهذا معنى الإهانة.

ولم يُذكر وصف (المعاجِزين) في القرآن الكريم إلا مرة أخرى في سورة الحج، في قول الله تعالى: (والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم)، فجاء في هذه الآية معنى العذاب دون معنى الإهانة، مما نرجح معه أن آيات سورة سبأ إنما قصدت فئة المترفين وأصحاب السلطة على وجه خاص، فكررت لأجل ذلك وصف العذاب المهين.

(٦)

ومن أعجب وأبدع ما يلفت النظر في سورة سبأ هو حكايتها لموقف الدار الآخرة حين يتجادل الأتباع والمتبوعين، فإن فيها لمحات لا أعرف أنها موجودة في سور أخرى من القرآن الكريم..

لنسمع الحوار أولاً:

(يقول الذين اسْتُضْعِفوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكُنَّا مؤمنين.

قال الذين استكبروا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟ بل كنتم مجرمين.

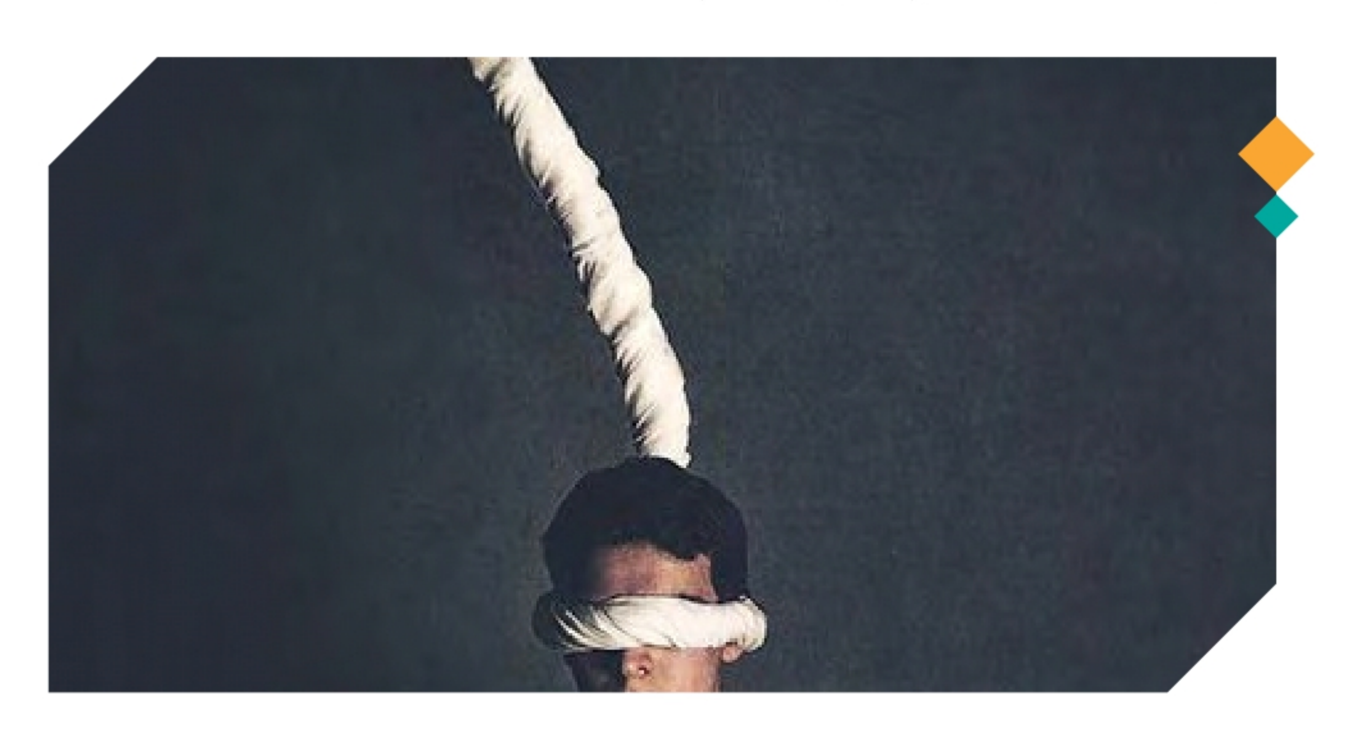
قال الذين استُضْعِفوا للذين استكبروا: بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً).

هذا الحوار يوحي إلينا بأن أولئك التابعين إنما اتبعوهم انبهاراً لا قهراً، اتبعوهم افتتاناً بهم لا خوفاً منهم ورهبة، فإنك ترى المتبوعين يتبرؤون من أنهم أكرهوهم على شيء: (أنحن صددناكم عن الهدى؟)، والتابعون يعترفون أن المسألة لم تكن إكراهاً بل كانت مكراً مستمراً، وهذا المكر المستمر ليلاً ونهاراً هو الذي فتنهم وأذهلهم وجعلهم يصدون عن الهدى.

يتبين هذا المعنى واضحاً حين نراجع مواقف أخرى من حوار التابعين والمتبوعين.. ففي سورة غافر قصَّ الله علينا حوار قوم فرعون وهم في النار، فقال تعالى:

(فيقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار؟

قال الذين استكبروا: إنا كلٌّ فيها. إن الله قد حكم بين العباد).



فهنا أنت ترى حواراً واضحاً بين تابع ومتبوع من نوع الحاكم والمحكوم، وترى في نفس المحكوم المضطهد ذلة وضعفاً لا تزال معه وهو في النار، فسؤاله عليه مسحة الرجاء الذليل والطلب الكسير والأمل المصبوغ بالخوف والتأدب والتمسح فيقولونها بصيغة السؤال (هل) مع التعظيم (أنتم مُغنون) مع التقليل من الطلب (نصيباً من).. ويجيئ الرد محمولاً بالكبر والعجرفة القديمة للحاكم الآمر المتسلط، فتراها عبارة قصيرة ولهجة قاطعة (إنا كلٌّ فيها. إن الله قد حكم بين العباد)، كأنها باللهجة العامية «مش عايز دوشة، لا تطول معي في الحكي، لا توجع لي راسي».. إلخ!

والقصد أن الحوار هنا مفارق للحوار الذي في سورة سبأ، فحوار سورة سبأ فيه

معنى انبهار التابع بالمتبوع، وفيها معنى سيطرة المتبوع على التابع عن طريق الفتنة الناعمة، الثقافة الغالبة، المكر الهادئ، لا على طريقة الحاكم كما هي في حوار قوم فرعون.

ونرى نوعاً ثالثاً من الحوار بين أهل النار في سورة الصافات، وهو حوار بين أصدقاء أنداد، لا يملك أحدهم للآخر إلا الاقتراح والإغراء، قال تعالى:

- (قالوا: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين

- قالوا: بل لم تكونوا مؤمنين. وما كان لنا عليكم من سلطان، بل كنتم قوماً طاغين. فحقَّ علينا قول ربنا إنا لذائقون. فأغويناكم إنا كنا غاوين).

هذا الحوار الذي في سورة سبأ، بهذه الصيغة والطريقة، مما ينسجم مع هدف السورة وموضوعها الذي يتناول أهل الترف والسلطان، وفتنتهم عن طريق الإبهار والبريق لا عن طريق القهر والغلبة.

(٧)

فما الحل؟!

ما الحل في مواجهة فتنة الترف والسلطان المبهر البرَّاق؟ وكيف يمكن أن نتخلص من سطوة الغالبين وننجو من طبيعة المغلوبين في تقليد من غلبوهم.

في سورة سبأ ستأتينا الآية العظيمة التي تقول: (قل إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مَثنى وفُرادى ثم تتفكروا).

وهذه الآية هي الأصل في فهم علم نفس الجماهير الذي يُنسب البدء فيه إلى المستشرق والفيلسوف الفرنسي الكبير جوستاف لوبون، بينما نجد في كلام المفسرين وفي كلام وتصرفات سلفنا الصالح ما يدل على أنهم سبقوا إليه ونصُّوا عليه، ولا عجب! فإن لوبون نفسه يُقِرَّ بأن هذا العلم وإن كان هو أول من كتب فيه فإن سائر الزعماء قبله طبقوه فعلاً.

◆ لكننا هنا لا نتحدث عن مجرد تطبيق، فهذا مفروغ منه، بل نقول: إن هذه الآية قد أشارت إلى هذا الطبع الجماهيري في التفكير، وأنه طبع غير عاقل، وأن من أراد الحق فعليه أن ينخلع من تأثير الجماهير فيختلي بنفسه أو يصطفي معه صديقاً مقرباً مخلصاً ثم يفكر أو يفكران، فهنا يستطيع ويستطيعان التخلص من فتنة الغالبين المبهرين، ومن تأثير الجماهير عليهم.

ولا بأس من جولة سريعة في أقوال المفسرين والسلف الصالح في هذا المعنى:

لقد ذهب أبو حاتم إلى أن المعنى تامٌّ عند قوله «ثم تتفكروا» وأن «ما بصاحبكم» بداية جملة جديدة، و«ما" تكون نافية، فيكون المعنى: قوموا لله مثنى وفرادى ثم تفكروا، فستصلون إلى أن نبيكم ليس به جنون! وبهذا يكون مطلب القيام مثنى وفرادى مطلبٌ قائم بنفسه. وقال غيره من أهل التفسير إن المعنى هو أن تتفكروا: هل بصاحبكم من جنة، فـ «ما» هنا استفهام[1].

وعلى المعنيين يكون الشاهد المقصود أن التفكير السليم إنما يكون بالانخلاع عن المجموع وأن يكتفي المرء بنفسه أو بآخر فحسب، قال مقاتل: «يتفكر الرجل وحده ومع صاحبه فيعلم ويتفكر"[2]، وقال ابن قتيبة: «فتقوموا لله وفي ذاته، مقاماً يخلو فيه الرجل منكم بصاحبه فيقول له: هلمّ فلنتصادق، هل رأينا بهذا الرجل جنّة قط أو جربنا عليه كذباً؟ فهذا موضع قيامهم مثنى. ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيفكّر وينظر ويعتبر، فهذا موضع قيامهم فرادى. فإنّ في ذلك ما دلهم على أنه نذير. وكل من تحير في أمر قد اشتبه عليه واستبهم، أخرجه من الحيرة فيه: أن يسأل ويناظر، ثم يفكّر ويعتبر"[3].

---

(١) انظر: النحاس، القطع والائتناف، ص٥٦٥؛ مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، ٥٩٣٨/٩؛ ابن سيده، إعراب القرآن، ٢١٨/٧.

(٢) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، ٥٣٧/٣.

(٣) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص١٩١. وانظر: الطبري، تفسير الطبري، ٤١٨/٢٠؛ النحاس، معاني القرآن، ٤٢٣/٥.



واستخرج الزمخشري من الآية طبيعة التفكير في المجموع، قبل ثمانية قرون من حديث المعاصرين في هذا الموضوع، يقول: «والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم، وهي: أن تقوموا لوجه الله خالصاً متفرّقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به، أمّا الاثنان: فيتفكران ويعرض كلّ واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين، **لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية**، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه، وكذلك الفرد: يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقرّ عنده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم، و**الذي أوجب تفرّقهم مثنى وفرادى: أنّ الاجتماع مما يشوّش الخواطر، ويعمى البصائر، ويمنع من الروية، ويخلط القول، ومع ذلك يقل الإنصاف، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب. ولا يُسْمَع إلا نصرة المذهب**"[1].

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ٥٩٠/٣؛ وانظر: المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد، ٣٠٦/٥؛ البيضاوي، تفسير البيضاوي، ٢٥٠/٤؛ النسفي، تفسير النسفي، ٧٠/٣؛ النيسابوري، تفسير النيسابوري، ٥٠١/٥؛ الإيجي، تفسير الإيجي، ٣٩٤/٣؛ أبو السعود، تفسير أبي السعود، ١٣٨/٧؛ ابن عجيبة، البحر المديد، ٥٠٦/٤؛ الألوسي، روح المعاني، ٣٢٨/١١.

وأضاف أبو حيان الأندلسي أن هذا التفكير "مُشَاهدٌ في الدروس التي يجتمع فيها الجماعة، فلا يوقف فيها على تحقيق"[1]. وأضاف الطاهر بن عاشور أن السلامة من عوائق التفكر السليم تقتضي أن يكون «مثنى وفرادى فإن المرء إذا خلا بنفسه عند التأمل لم يرضَ لها بغير النصح، وإذا خلا ثاني اثنين فهو إنما يختار ثانيه أعلق أصحابه به وأقربهم منه رأياً فسلم كلاهما من غش صاحبه"[2].

وفي صدر الإسلام، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سمع عمرُ كلام بعض الناس في شأن الخلافة وهو في موسم الحج فأراد معالجة الأمر بخطبة في الناس، فقال له عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم **فتقول مقالة يُطَيِّرها عنك كل مُطَيِّر وأن لا يعوها وأن لا يضعوها على مواضعها**، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص **بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكناً فيعي أهل العلم مقالتك ويضعونها على مواضعها**"[3].

فهنا خشي عبد الرحمن بن عوف أن يؤثر أمر الجموع والحشود على حسن فهم الكلام وتعقله، ونَصَحَ بأن يقال ذات الكلام في حضور أهل الفقه وأشراف الناس، بل إن في كلام عبدالرحمن بن عوف إشارة إلى أن الجماهير تؤثر على إلقاء الكلمة نفسها، وذلك في قوله «فتقولَ ما قلتَ **مُتَمَكِّنًا**"، فالكلام في الحشود الكثيرة قد يذهب أحياناً بالتمكن المطلوب.

وفي هذه الوصية من عبدالرحمن بن عوف معنى آخر يُدرس في مباحث علم نفس الجماهير، وهو أن الجماهير تهتبل كلام القائد الذي يخطب فيها

---

(١) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ٥٦١/٨.
(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٣٣/٢٢.
(٣) البخاري ٢٥٠٣/٦ (٦٤٤٢).

وتنقله دون وعي في العموم، وهذا من جاذبية القائد وسحره عليهم، وقدرته على التأثير فيهم، ولهذا استخرج العلماء من هذا النص التفريق بين أمور البلاغ العام التي تنقل للجميع وبين الأمور التي تحتاج إلى الموازنة والحكمة وبيان الحوادث التاريخية الدقيقة، فهي التي فيها يكون الانفراد بوجوه الناس، ممن يعقل وضع الأشياء في مواضعها، وأن العلم لا يحدث منه الناس إلا بما يرجى ضبطهم له[١].

وعلق القاضي ابن العربي على هذه الوصية بقوله: «كان خوف سوء التأويل للقول، وحمله على غير وجهه، مخوفاً في الصدر الأول"[٢].

ومن أشهر ما ينقل عن علي رضي الله عنه في هذه العلاقة بين الجمهور وشأن العلم والتفكير قوله رضي الله عنه: "الناس عالم أو متعلم على سبيل النجاة أو همج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح"[٣]. ويُلاحظ هنا إفراده العالم والمتعلم فلم يقل "العلماء" أو "المتعلمون"، بينما جَمَع في وصف الجهل، وأضاف إلى ذلك الوصف بأنهم أتباع كل ناعق، ويميلون مع كل ريح. وهذا هو جوهر معنى التأثير في الجمهور المحتشد وتوجيهه حتى لكأنه يفقد العقل والرشد، فيصير تبعاً لكل صيحة ومستسلماً لكل ريح!

وإذا استوعبنا هذه العلاقة بين الجموع والتفكير العقلاني، فهمنا كثيراً من سلوك العلماء في حلقات العلم وتضييقها على من تثبت جديتهم من التلاميذ وتراثهم في آداب المتعلم من جهة خفض الصوت ولزوم الأدب وتجنب الشغب والمماراة وكراهيتهم المناظرة بحضرة الجمع الكثير وغيرها من الأمور التي لا يتسع المجال لسردها مما يؤثر فيها كثرة الجمهور على فهم العلم،

---

(١) انظر: ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ٦/١٧٠؛ ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح، ١/١١٦؛ الكرماني، الكواكب الدراري، ٢٣/٢١٣؛ الشاطبي، الموافقات، ٥/١٧٠، ١٧١؛ ابن الملقن، التوضيح، ٣١/٢١٨.

(٢) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص١٩٥.

(٣) نقل هذا القول على خلاف يسير في ألفاظه، انظر: المسعودي، مروج الذهب، ٣/٣٥؛ السمرقندي، بستان العارفين، ص٣٠٤؛ ابن عبد البر، جامع بيان العلم، ١/١٤٥؛ الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، ٢/٢٩.

وأما الجموع الكثيرة فقد جعلوا لها الوعظ العام والكلام في الرقائق وعمومات الدين وأصوله الكبرى ونحو ذلك.

وموضوع علم نفس الجماهير، وأصوله المنثورة في القرآن والسنة وكلام سلفنا الصالح موضوع طويل، وكنتُ شرعتُ في كتابته ثم توقفت.. فلعل القارئ الكريم يعينني بدعوة صالحة لأستأنف هذا البحث فيها.

فإذا عدنا من هذا الاستطراد إلى سورة سبأ، وجدنا أن السورة احتوت على حلول أخرى للنجاة من فتنة الغالبين من المترفين وأهل السلطان، وقد جاءت هذه الحلول تصريحاً أو تلميحاً:

- فكل إيمان بالله وبقوته وقدرته وعلمه الهائل المحيط يعصم من هذه الفتنة.

- والإيمان بالآخرة وتذكرها يعصم من هذه الفتنة (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد).

- وكل اقتداء بعباد الله الصالحين كداود وسليمان يعصم من هذه الفتنة.

- وكل اتعاظ بمصائر المترفين كقوم سبأ يعصم من هذه الفتنة.

- والحث على الإنفاق في سبيل الله، وهو منثور في السورة، يعصم من أن تتكون نفسية المترف في قلب المسلم، فتعصمه بهذا من أن يُفْتَن أو يَفْتِن.

نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يفقهنا في كتابه الكريم.

قراءة في كتاب

الجهاد في السعودية

قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب

لتوماس هيغامر



أحمد الحمدان

كتاب (الجهاد في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب) للباحث النرويجي توماس هيغامر قد يصدمك عنوانه وتظن أنه ممنوع بينما هو مسموح به في السعودية نفسها، وهو يتكلم باختصار عن تشكل "تنظيم القاعدة في جزيرة العرب" من الجذور إلى الظهور، ويقع في (٤٠٠) صفحة، من إصدارات الشبكة العربية، وترجم ترجمة محترمة ذات جودة عالية على يد أمين الأيوبي.

» وأصل الكتاب رسالة دكتوراة، وكأغلب الباحثين في شؤون الجماعات الجهادية في الغرب يعملون مستشارين في وزارات الدفاع أو الداخلية (الأمن)، وهذا يثبت أن في العمل المؤسسي الغربي لا يوجد شخص يبحث عن الحقيقة لمجرد الحقيقة؛ بل ليقف عليها ويتصورها تصوراً صحيحاً ثم يحاربها على بصيرة ليُحجم من آثارها، ومن أراد الاستزادة في هذا فليرجع إلى كتاب (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) لمحمود شاكر.

وأظن أن الأنموذج المثالي لدراسة الظواهر الإسلامية من تنظيمات وأحزاب هو إخضاعها للتحليل السوسيولوجي، وهي دراسة بنية التنظيم من خلال تشخيص أعضائه اجتماعياً، وهو معني بتحليل العلل الكامنة لا السبب الظاهر، فيُقال إن فلاناً انضم إلى الجماعة الفلانية، فيفصلون ما بين الحدث الظاهر (الانضمام) و(الدافع)، فيُقال: دعنا ندرس خلفية فلان الاجتماعية، فنرى أنه حاول العمل وبقي عاطلًا لسنوات، وهذا ما دفعه إلى الانضمام إلى جماعة تنادي بالتغيير الشامل والجذري للأوضاع في المجتمع، هو آمن بمبادئ الجماعة وتجذرت فيه ولا يزايد أحد على إخلاصه لها، ولكن الدراسة تبحث العلل الكامنة، وهذا الأسلوب وإن كان جيداً في التشخيص أحياناً، إلا أنه أسلوب مادي، يربط كل التصرفات بالمادة في غالب الأحيان، فمثلًا قد لا يتصور أن الإيمان هو السبب ودافع الحركة، لا الوضع الاجتماعي أو النفسي.

وهذا تجدهُ في كتاب (جهاد النساء: لماذا اخترنَ "داعش"؟) لـفتحي بن سلامة وفرهاد خسروخاور، فقد شخصوا أسباب انضمام النساء الأوروبيات الى داعش سوسيولوجياً وسيكولوجياً، فتضاءلت دائرة الدين وغدت وكأنها ردة فعل لا فعل بذاته.

» دعنا نعود إلى الكتاب، الكتاب وضع سؤالاً عريضاً في المقدمة (لماذا حصلت الأحداث سنة ٢٠٠٣ بالضبط لا قبل ذلك؟) وهذا التساؤل قد يكون مدخلًا لتشخيص الحالة تاريخياً ثم يتفرع منه عدة أمور، أي كأنها نقطة محورية والنقاط الأخرى تُرد إليها.

فالكتاب تكلم عن مشاركة السعوديين في الجبهات الجهادية المختلفة (أفغانستان الأولى - البوسنة - الشيشان - طاجيكستان) ثم نحت مصطلحات لفرز الحالات عن بعضها البعض:

- (الجهاديين الكلاسيكيين) هم الذين انضموا إلى جبهات قتال ضد محتل كافر لأرض مسلمة.

- (الثوريين الاجتماعيين) هم الذين ثاروا على النظم في دولهم مثل الجزائر ومصر.

- (الجهاديين العالميين) هم الذين آمنوا بمبدأ مقاتلة العدو البعيد قبل العدو القريب، وقدموا أمريكا على عملائها.

»وبعد فحص العينات، وجد أن غالبية السعوديين هم من الجنس الأول (الجهاد الكلاسيكي) الذي ينادي بالذهاب إلى أرض إسلامية محتلة من قِبل عدو كافر مثل الشيشان وأفغانستان والبوسنة، ولم يكن أغلبهم يريد أن يقاتل حكومته (الثوري الاجتماعي) أو يقاتل أمريكا والنظام الدولي (الجهادي العالمي).

ثم يرصد الكتاب كيف استطاع أسامة بن لادن أن يجذب من خلال التجنيد الطرف الأول ويجعله جهادياً عالمياً. والذي لا شك فيه أن مشايخ مدرسة الشعيبي والعييري وشبكات التجنيد لعبت دوراً هاماً في هذا.

فكانت هنالك عدة نقاط لتحوير الاهتمام من الجهاد الكلاسيكي إلى الجهاد العالمي، تتمثل بأن الشيخ بن لادن ومَن معه يرون بأن أي دعم للطالبان من قبل المشايخ هو بالضرورة دعم لهم. فكان دعم الشيخ حمود الشعيبي وغيره من العلماء والمشايخ للطالبان هي القنطرة للتجنيد. فعندما يُذكر أن الطالبان دولة إسلامية وتحكم الشريعة قد يغري هذا بعض مريدي الشيخ الشعيبي للذهاب والعيش في أكناف هذه الدولة، وعندما يذهب لابد أن يسأل أو يحتك

أو ينضم مع العرب الذين هم من بلده، وهذا يعني بالضرورة دخوله معسكرات القاعدة وتأطيره على مفاهيمها، فقد يكون هذا المجند غير مقتنع بالجهاد العالمي في الابتداء ولكن بمجرد ما يصل إلى أفغانستان ويدخل معسكرات القاعدة يبدأ في التغير والاقتناع.



وكذلك استغلال أفغانستان كنقطة تدريب؛ فقد يتحمس الشاب للتفاعل مع قضايا الأمة؛ فيقال له إن أردت الجهاد في فلسطين فلابد من الذهاب إلى أفغانستان للتدريب أولاً أو نحو ذلك. وبمجرد ذهابه تتغير قناعته ويرى أن سقوط أمريكا يعني تحرر فلسطين بالضرورة وهذا يعني أنه تغير من المفهوم الكلاسيكي للجهاد إلى المفهوم العالمي.

» ثم بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وذهاب مركزية "القاعدة" واضطرار رجوع بعض أعضائها إلى بلاده، يبحث الكاتب سبب تأخر الحملة العسكرية لسنة ونصف تقريبًا (منذ بداية ٢٠٠٢ حتى مايو ٢٠٠٣)، والذي فسره المؤلف بحملة محمومة لترتيب الأوراق ورص الصفوف وجعل الأمر مركزياً -قدر الاستطاعة- وتهريب العتاد والسلاح، ولكن قد بدأ الأمر قدراً، عندما انفجرت قنبلة في أحد الملاجئ في شهر مارس ٢٠٠٣ وقتل من حاول تركيبها، مما جعل الشرطة

تكتشف المكان وما حوى من بيانات ومعلومات وأوراق وأسلحة وأموال، وحينها لم يعد هنالك مجالاً للتراجع بعد أن كشفت الأوراق.

ثم أورد المؤلف أسباب ضعف القاعدة وكيف تقلص تأثيرها إلى أن وصل إلى حده الأدنى بمقتل قائدها الأخير الجوير عام ٢٠٠٦.

ثم تحدث المؤلف عن وجود خلايا مختلفة، لديها أمر عام بالعمل ولكنها منفصلة على أرض الواقع. فخلية الناشري تعمل بشكل مستقل عن خلية العييري، وعمل الأولى وتفككها أدى بالضرورة إلى التعمية عن الثانية؛ إذ كان البعض يظن أن خلية الناشري هي القاعدة وبتفككها تفككت القاعدة ولا داعي للخوف، فلم يأخذ بالاعتبار أن هنالك خلية ثانية نشطة.

ثم تكلم المؤلف عن أحداث المواجهات وتسلسلها وتصنيفها الموضوعي، ولم يعتمد التسلسل الزمني، بل الموضوعي؛ فصنف العمليات التي استهدفت الشرطة وحدها، والعمليات التي استهدفت الأجانب وحدها، وهكذا.

وعرض من بداية العمليات إلى انتهاء القاعدة في السعودية بمقتل قائدها فهد الجوير مطلع عام ٢٠٠٦، واعتقال المئات من أفرادها وأنصارها.

» ولم يكن الكتاب محصوراً في الكلام عن ظاهرة تنظيم القاعدة في السعودية، بل تكلم كذلك عن الدور السعودي في الجهاد الأفغاني الأول، من حيث الدور الحكومي إذ فاق الدعم السعودي للمجاهدين الأفغان المبلغ الذي دعمت به الحكومة السعودية منظمة التحرير الفلسطينية، فمثلاً بلغ مجموع ما حصلت عليه منظمة التحرير الفلسطينية من السعودية في نحو ١٤ سنة ٩٩٢ مليون دولار، بينما حصل الأفغان على ١.٨ مليار دولار خلال ثلاث سنوات فقط!

وامتد الدعم السعودي ليشمل الدعم المالي للجمعيات الخيرية ولحزب الاتحاد بقيادة عبدالرسول سياف، وكان الدعم يمرر من خلال منظمتي الهلال الأحمر

واللجنة الشعبية لجمع التبرعات التي أسسها حينها الأمير (والملك الحالي) سلمان بن عبدالعزيز، وسلم وزير الخارجية سعود الفيصل منظمة المؤتمر الإسلامي شيكاً بمبلغ ٢١ مليون دولار لمساعدة اللاجئين الأفغان، وزاد عليها الأمير أو الملك سلمان مبلغاً إضافياً بقيمة ١٣ مليون دولار لحكومة باكستان لذات الغرض.



وتعاون الدبلوماسيون السعوديون أيضاً مع مكتب الخدمات التابع لعبد الله عزام، فقد ساعد السفير السعودي في إسلام آباد على نقل جرافة من السعودية إلى باكستان واستخدمت هذه الجرافة في بناء معسكرات التدريب في أفغانستان، وقدمت الخطوط الجوية السعودية خصوماً بنسبة ٧٥% من ثمن تذاكر السفر المتجهة إلى (بيشاور)، وكان التلفزيون السعودي يبث محاضرات لعبد الرسول سياف، ونشرت الصحافة السعودية بعض المقالات المتحدثة عن كرامات الشهداء العرب الذين استشهدوا في أفغانستان، وترأس الأمير أو الملك سلمان لجنة تبرعات باسم "لجنة نصرة المجاهدين الأفغان". ونفس الخطوات تقريباً اتخذت في قضية البوسنة. وقد ذكرها المؤلف في مقدمة فصول الكتاب.

» ثم تكلم حول القضية الأفغانية على وجه التحديد، جغرافيا التجنيد،

ودور منظمات الإخوان المسلمين في التجنيد، وكيف اتسعت رقعة المنظمين السعوديين إلى الجهاد الأفغاني منذ ١٩٨٥ وما فوقها، فالمؤلف هنا يتكلم بكلام إحصائي جميل أحسب أنه يغربل لك الكثير من الصور النمطية الخاطئة التي يتناقلها الإعلام بشكل مغلوط من أجل المناكفات ولأغراض سياسية.

» ولكن إذا أردنا أن نتكلم عن المؤلف أو منهجيته، فالمؤلف بدأ رسالته في الوقت الخاطئ، في وقت قبضة أمنية أكثر شدة بالسعودية حول هذه المواضيع، والذي يتكلم كان مصيره الاعتقال. وكان هذا سنة ٢٠٠٧.



والسعودية وإن سمحت للباحثين الغربيين أن يكتبوا أبحاثهم جراء اللقاءات الميدانية، لكنها لم تسمح لهم بلقاء معتقلي القاعدة وسماع روايتهم، والتي قد تكون مكذبة لرواية الحكومة أو مشوشة عليها، أو خوفاً من دعاية المعتقلين لأيديولوجيتهم خلال شهادتهم.

» وأذكر فقط أنه في أحد المرات التي نقل فيها المؤلف رواية عن فارس الزهراني - نقلها عبر سجين سابق - تبين الأثر المدمر لمداهمة القوات الأمنية بتاريخ ٢٠ يوليو ٢٠٠٤ على المقر الإعلامي للتنظيم، والذي أدى إلى اكتشاف

تسجيلات وصور ووثائق سهّلت وأدت إلى الوصول للعديد من الأفراد غير المعروفين.

ولو كتب المؤلف بحثه سنة ٢٠١٢ لربما حصل على معلومات أكثر؛ إذ كان هنالك هامش من الحرية، وأُفرج عن الكثير، وأصبح الجهاديون يكتبون بأسمائهم الصريحة. ويناصرون الجماعات الجهادية علناً، ومن المعلوم أن الحكومة انتهجت سياسة الخلط بين المعتقلين، فكان معتقلو القاعدة وأنصارها والإصلاحيون والصحويون في مهجع واحد.

والاحتكاك الدائم يؤدي إلى الفضفضة في الكثير من الأحيان، فحتى إن لم يستطع القاعدي المعتقل الإدلاء بروايته بشكل مباشر إلا أنه يُستطاع معرفتها من خلال وسطاء قد سمعوها منه.

» مثلاً أدلى بعض المفرج عنهم بمعلومات عن حصول انشقاق في فرع السعودية بسبب تفجيرات الوشم وما جرى بعدها من تداعيات، فقد حُكي أن هذا سبب انشقاق الرشود وذهابه إلى العراق، فقد قال في مجلة صوت الجهاد في عددها الرابع: "وإن كان شرفاً لي مشاركة إخواني في جِهادهم المقدس في العراق ضد الصليب وحلفائه المرتدين، إلا أن ثمة حقيقة أَعْجَبُ من تجاهل كثيرٍ من الصادقين لها، ألا وهي أنّ تحرير جزيرة العرب من حكم وأنظمة هيئة الأمم المتحدة والعمل على إخراج اليهود والنصارى والهندوس والمرتدين منها أولى بالنسبة لنا".

وحكى بعض المفرج عنهم أيضاً عن تراجعات، مثل الشيخ عبدالعزيز الجربوع، أو خلافات حصلت داخل السجن بين الشباب وبعض المشايخ، كما نسب إلى الشيخ أحمد الخالدي أنه دخل في صدام مع جملة من الشباب وصل إلى حد المقاطعة حول تكفير أعيان الطائفة الممتنعة، ونحوها مما سرب وشاع خبره بعد حملة الإفراجات عام ٢٠١٢.

» على العموم المؤلف بذل جهده في تقصي بعض الروايات في كتابه،

فتجد في بعض الأحيان مواضع يقول فيها إنه نقل هذه المعلومة عن (إسلامي سعودي رفض الكشف عن هويته)، وشهود العيان هؤلاء لا يمثلون صناع الحدث (الحكومة أو القاعدة)، وإنما طرف مقرب من أحد الأطراف، وبالتالي قد يشهد بما رأى أو ينقل ما سمع. إذا أضفنا إلى ذلك أنه مجهول فذلك يضعف من قوة شهادته عموماً.



وكذلك نقل المؤلف رواية ضباط أمن سعوديين، وكذلك ببعض الشخصيات الإعلامية أو الإسلامية سابقاً مثل علي العميم ومنصور النقيدان وعبدالله العتيبي وأضرابهم.

ورغم استشهاد المؤلف بالروايات الشفهية في بحثه؛ إلا أنها لم تكن بغزارة صنيع ستيفن لاكروا في كتابه (جيل الصحوة)؛ إذ مثّلت الروايات الشفهية أكثر من ثلث ذلك الكتاب.

»حاول المؤلف أن يعتمد على المصادر الرئيسية والمباشرة مثل مواد القاعدة الرسمية سواء كانت مرئية أو مسموعة أو مكتوبة. ورغم أن هيكلية عمل القاعدة في السعودية المتمثلة في شكل خلايا عنقودية جعل المعلومات

محدودة، لأنه لو ضُربت خلية أو قتل أغلب أفرادها وهربت البقية أو أُسرت فلا يوجد هنالك من يعطي القيادة شهادة عيان تمثل وجهة نظرة القاعدة الإعلامية، فلذلك الكثير من الأحداث قد سقطت سهواً في مجلة صوت الجهاد، أو تكون ناقصة، مثل ما حصل في أحد الاشتباكات التي وقع أحد المقاتلين فيها صريعاً ولاذ البقية بالفرار، وأُعلن في مجلة الجهاد استشهاد هذا الرجل، ثم أتضح لاحقاً أنه وقع مصاباً لا قتيلاً.

والاستدلال بالمصدر الرسمي أمر مهم، وهذ ثغرة يسقط فيها الكثير أو بعض المحللين، الذين يعمدون إلى مصادر وسيطة تشوّه المعلومة أو تضيف إليها أو تحرفها، فيقع الباحث في الفخ ويبتلع الطعم وينقل الخطأ كما هو.

ولكن كذلك ليست كل روايات شاهدي العيان دقيقة، فقد ترى مثلاً أن أحد المجامع السكنية التي أصرت القاعدة على أنه مجمع غربي يتضح خلاف هذا الزعم عندما فُجرت، واتضح أنه يوجد فيه مسلمون عرب، وأحياناً القرائن تخون الشخص، فليس كل مجمع سكني ذي حراسة أمنية مشددة هو مجمع يسكنه غربيون.

ثم إن الحقيقة التاريخية في بعض طياتها قد دُفت بموت أصحابها، فبعض الوقائع لا زالت لم تحل ولم يعرف لها جواب من الطرفين، سواء من طرف الحكومة أو قيادات القاعدة المعتقلة، أبسطها مكان دفن بعض القيادات الذين قُتلوا، مثلاً ترى القيادي فارس الزهراني الذي أُعدم سنة ٢٠١٥ يقول في كتابه (الجواب المسدد) الذي هو أجوبة على التهم التي وجهت له من قبل النيابة العامة:

» (وقمت أنا وفيصل الدخيل وفهد الدخيل وعواد العواد ونايف العوشن وخالد السنان رحمهم الله بالذهاب به إلى خارج الرياض، في مكان لا يعلمه إلا فيصل الدخيل وخالد السنان؛ حيث كنا مغمضي الأعين وذلك كإجراء أمني حتى لو تم اعتقال أحد منا فلا يدل على القبر... وقد أتاني بعد اعتقالي رئيس التحقيقات الأسبق اللواء عائد الحازمي ومعه عدد من الضباط منهم اللواء محمد بن سعد البقمي رئيس التحقيقات السابق الذي خلف الحازمي،

واللواء سعد الشهري رئيس التحقيقات الحالي والذي خلف البقمي، وآخرون وقد أحضروا صوراً لي وأنا أحفر قبر راكان الصيخان رحمه الله وأيضاً وأنا أدفنه كان الإخوة صوّروها لتنشر فيما بعد، وجعلوا يسألون عن القبر وأين هو فلم يجدوا جواباً لأنّي لا أعرف مكان قبره). [ص٣٨٢]

وعلى هذا فقِس، على العموم لدى الحكومة السعودية العديد من الوثائق والحصريات التي لو أُتيحت للعامة لاستطاع الباحث أن يدرس ظاهرة القاعدة في السعودية دراسة صحيحة، وقد عرضت الحكومة جزءاً يسيراً من هذه الأمور الحصرية ضمن إصدار (كيف واجهت السعودية القاعدة)، الذي نُشر في ثلاثة أجزاء من قبل قناة العربية ضمن حملة لتمهيد إعدام قيادات القاعدة الذي تم لاحقاً. ولكن هذا نقطة من بحر، وفي نهاية المطاف لا أظن أن السعودية تنشر مواداً تطعن فيها وفي شرعيتها ولكن على الأقل لو تتاح للباحثين المختصين.



» والمؤلف أسقط أموراً مهمة جداً لدراسة تيار القاعدة في السعودية، وهي الخلاف مع بعض المشايخ حول العمل المسلح. وهنا لا يعذر، كون هذه النصوص منشورة معلنة، ولكن للأمانة قد تعرض لجانب بسيط من

هذا الخلاف الكبير، وهو خلاف الجهاديين الكلاسيكيين مثل أبي عمر السيف في الشيشان مع رؤية العمل داخل السعودية، وهذا ما جعل القاعدة ترد عليه علناً في الأعداد الأولى من مجلة صوت الجهاد.

» على العموم هنالك من اعترض على هذه العمليات سواء في حينها أو لاحقاً كمراجعة، مثل الشيخ عطية الله الليبي إذ يقول: (أما الرياض فهذه بلا شك التفجير فيها ليس مما نسلّم بمشروعيته، وليس هو مما يرى مشروعيته أكثر أهل العلم والدعوة، فهذا من الخطأ الذي نردّه، وهذا من التوسع الذي ننكر! [عطية الليبي، مجموع الأعمال الكاملة - ص١٣٨٠].

وكذلك الشيخ سليمان العلوان في رسالة (حقيقة الجهاد والأحداث الداخلية)، فرد عليه طالب علم وأحد أفراد تنظيم القاعدة في السعودية وهو سلطان بن بجاد العتيبي في مقالة أغلظ عليه فيها بعنوان (حوار هادئ مع العلوان).

وكذلك للشيخ سليمان العلوان فتوى الورنتل التي رد عليها الشيخ يوسف العييري في رسالة لم تنتشر كثيراً.

" ويقول الشيخ ناصر الفهد: (أمّا المواجهة مع الدولة فقد كنت أنصح الشباب بالابتعاد عنها؛ لعدم تكافؤ القوى ولأن الدولة ستستغل هذه الأحداث في تصفية الشباب واحداً بعد الآخر، وستقوم بملء السجون منهم ومن غيرهم وقد حصل ما توقعته فعلاً). [التراجع عن التراجع المزعوم - ص٤].

وأرسلت شخصية مقربة من الشيخ أسامة بن لادن رسالة تنتقد فيها العمل العسكري في السعودية (وهي الرسالة رقم: SOCOM-٢٠١٢-٠٠٠٠٠١٨ ضمن وثائق أبوت آباد) وفيها إغلاظ في العبارة.

» **لذلك فأحداث السعودية ليست محل اتفاق بين الجهاديين أنفسهم.**

ولو تأخر المؤلف قليلاً في تأليف رسالته أو كتبها بعد أحداث الربيع العربي. لربما توسعت واتضحت الكثير من الفجوات. مثل تسريب كتاب الشيخ فارس

الزهراني الضخم ولقاءات داود الشريان مع خالد الفراج (خصوصاً أن المؤلف أورد المعلومة الخطأ حول الفراج فقال إنه اقتحم مع مسلحين بيته عندما سمعوا بوجود الشرطة مما أدى إلى مقتل والده، والصحيح أنه كان مع والده والشرطة عند اقتحام المسلحين، وكذلك أدلى الفراج بشهادة مختلفة في برنامج داوود عما كتبه المؤلف عن والده فيما أذكر). وشهادات بعض الناشطين حول رؤيتهم لمعتقلي القاعدة بالداخل.

أو على الأقل عمد إلى تنقيح كتابه كما فعل صاحبه ستيفان لاكروا في كتابه (زمن الصحوة). فمثلاً ستيفان قد استشهد بكتاب (أيام مع جهيمان) لناصر الحزيمي. وهذا الكتاب صدر بعد كتاب ستيفان لاكروا بسنوات.

لا زال سد بعض الفجوات ممكناً حتى بعد إعدام العشرات من قياديي القاعدة سنة ٢٠١٥.

» أبرز اسم ذكر في أحداث السعودية هو (القائد سيف العدل)، ولا زال هذا (القائد) حياً يكتب الأبحاث والدراسات. ولا شك أن شهادته سوف تجلي الكثير وتوّضح الرؤية وتضع النقاط على الحروف. بالأخص أن هذه التجربة انتهت تقريباً في تلك البقعة الجغرافية وأصبح جل أهلها ما بين قتيل ومعتقل محكوم عليه بسنوات كثيرة. فأعتقد أنه لا ضرر من كتابتها والله أعلم.

وكذلك أبو حذيفة السوداني (المذكور اسمه في الكتاب صفحة ٢٠٥ والذي تزعم عملية استهداف مطار سلطان العسكري، والذي ألقي القبض عليه في نهاية المطاف)، فقد أُفرج عن أبي حذيفة بعد أكثر من عقد قضاه في السجون وهو الآن حر طليق في بلاده. ورغم أن هذا الأخير كتب خواطر سجونية ولكن لا علاقة لها بالشهادة التاريخية.

وختاماً هذه أفضل دراسة كتبت عن تنظيم القاعدة في السعودية، ولدراسة التيارات الإسلامية في السعودية يفضل أن تقرأ هذا الكتاب بالإضافة الى كتاب (زمن الصحوة: الحركات الإسلامية المعاصرة في السعودية) لستيفن لاكروا بالإضافة إلى أول فصلين من كتاب (حتى لا يعود جهيمان) وهما لستيفن لاكروا وتوماس هيغامر، وأضف إليهم كتاب (الإسلاميون والإصلاح السياسي في السعودية) للدكتور منصور الشامسي.



وكل هذه الكتب هي في الأصل رسالة دكتوراه باستثناء كتاب (حتى لا يعود جهيمان) وكتاب الدكتور منصور الشامسي كتب في بحث دكتوراه بجامعة أكستر البريطانية ومعروف أن هذه الجامعة تتزمت من ناحية أسلوب البحث العلمي عند كتابة البحث من حيث المراجعة ودقتها. كما يفضل أن تقرأ هذه الكتب دفعة واحدة لأن كل واحد منها يفسر الآخر، بالإضافة طبعاً إلى كتاب (أيام مع جهيمان) لناصر الحزيمي، هذه الكتب تعطيك خلفية جيدة عن التيارات الإسلامية المعارضة في السعودية.

وهذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الصغـير منـير



العمل الخيري

بين الرسالية والوظيفيّة

(٠١)

لم يعرف الشعب الجزائري الجمعيات والنشاط الجمعويّ إلا بعد انتفاضة ١٩٨٨ وتعديل الدستور الذي فتح المجال أمام تأسيس الجمعيات والأحزاب والنقابات. وكلّ ما كان موجوداً من الجمعيات قبل هذا التاريخ - على قلّته - كان تابعاً للحزب الحاكم الواحد ويدور في فلك السلطة ويخدم أهدافها وخططها مع رداءة واضحة وغياب شبه تامّ في الميدان مع حضور وتسويق إعلاميّين لنفخ هذه الجمعيات وتلميعها.

ولأنّ فترة الانفتاح السياسي والحريات العامة بعد أحداث أكتوبر **١٩٨٨** لم تدُم أكثر من ثلاث سنوات فقد كان عدد الجمعيات الخيريّة - وهي موضوع حديثنا في هذه المقالة - قليلاً وكان تأثيرها محدوداً. ومما يمكن ملاحظته أن أكثر الجمعيات التي تأسست كانت في الحقيقة تابعة لأحزاب سياسية أو تيارات فكرية وكانت بمثابة الأذرع التي تمكّن هذه الأحزاب والتيارات من التغلغل والانتشار في أوساط الشعب.



وقد كان من أشهر الجمعيات التي تأسست في هذه الفترة (جمعية الإرشاد والإصلاح) وجمعية (كافل اليتيم) التي كانت في حقيقتها أكبر من مجرّد جمعية. فقد كانت تمثّل الغطاء القانوني لنشاط الإخوان المسلمين المرتبطين بمكتب الإرشاد في مصر وبالتنظيم العالمي للإخوان المسلمين، وكان نشاطها ثقافياً وتربوياً وفكرياً وسياسيّاً قبل تأسيس حركة حماس (حركة المجتمع الإسلامي) بقيادة الشيخ محفوظ نحناح رحمه الله تعالى، مع حضور بارز ومتميّز للعمل الخيري والإغاثيّ.

غير أنّه وفي وجود الجبهة الإسلامية للإنقاذ كحزب سياسيّ قوي ذي شعبية جارفة وحضور طاغٍ في الساحة واكتساح للمجالس البلدية والولائيّة فقد كان نشاط جمعية الإرشاد والإصلاح غير معروف بما يكفي إلا للمنتسبين

إليها والقريبين منها أو المستفيدين من خدماتها، أو الإعلاميين والسياسيين المتابعين للأحداث والتفاصيل.

وَلأن حركة (حماس) الجزائرية لم تكن قد تأسست بعد كحزب سياسي، ولأن حزب الجبهة الإسلامية للإنقاذ لم يكن يمتلك ذراعاً أو امتداداً جمعوياً بينما كانت تمتلك ذراعاً نقابياً ممثلاً في (النقابة الإسلامية للعمل)، وذراعاً طلابياً ممثلاً في (الرابطة الإسلامية للطلبة)، ولأنّ تلك الفترة عرفت هبوطاً في أسعار النفط أثّرت في المستوى المعيشي للشعب الجزائري وفي مداخيل الدولة الجزائرية باعتبارها دولة ريعية تعتمد بشكل شبه كلي على النفط؛ فقد كانت مظاهر الفقر والعوز تظهر وتنتشر بوضوح لا تخطئه عين المراقب العادي فضلاً عن عين السياسي ورجل الاستخبارات والخبير الاقتصادي.

في عام ١٩٩٠؛ وفي الفترة التي كانت فيها أكثر البلديات تسيّرها مجالس يهيمن عليها منتخبو الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ظهرت فكرة (أسواق الرحمة) أو ما صار يُعرف لاحقاً بالأسواق الإسلامية. وهي أسواق تتفاوت في حجمها وانتشارها بين بلدية وأخرى لكنها يجمعها أن المشرف عليها هم منتسبو الجبهة الإسلامية. وقد كانت فكرة المبادرة بتوجيه من قيادة الجبهة، وتُركت التفاصيل للمنتسبين ليتصرفوا بما تسمح به مواردهم وإمكاناتهم.



› وقد حاول العلمانيون واليساريّون وحزب جبهة التحرير يومها أن يتّهموا منتخبي الجبهة باستغلال ميزانيات البلديات في شراء الخضر والفواكه وغيرها من أجل دعم وتموين أسواق الرحمة واستغلالها لاحقاً في الدعاية السياسية والانتخابية للجبهة الإسلامية. بينما كان واضحاً جدّاً يومئذ أن البلديات التي كانت تسيّرها الجبهة كانت تعاني من حصار مالي تسبّب في شللها وتعطيل مشاريعها، وأن قانون البلديات نفسه صيغ بطريقة تجعل رئيس البلدية أقرب للموظّف الذي لا يملك أي سلطة حقيقية في بلديته حتى لو انتخبته الأغلبية المطلقة، وأن رؤساء البلديات أنفسهم لم يكونوا يتقاضون مرتباتهم من طرف وزارة الداخلية، حتى أن مناضلي الجبهة الإسلامية كانوا يجمعون من أموالهم ومن الشعب أجور رؤساء البلديات. وأقصى ما كانت تقدمه البلديات لأسواق الرحمة هو الشاحنات والمركبات المتوسطة لنقل المؤونة والسلع أو إصدار الرخص لنشاط هذه الأسواق.

› كانت (أسواق الرحمة) رحمة للفقراء والمساكين والبطالين. وكانت أسعار السلع فيها منخفضة حتى كانت أشبه ما تكون بالتبرعات المجانية. وكان العاملون فيها في أغلبهم متطوعين والعاملون منهم يتلقون أجرتهم من مداخيل البيع. وكان الفلاحون والمزارعون يتنافسون في التبرع والصدقات لهذه الأسواق بسخاء وتناقل الجزائريون يومها حكايات أشبه بأحاديث حاتم الطائي.

تسببت أسواق الرحمة في حرج كبير للسلطة التي أوعزت للصحف والجرائد بمهاجمتها والتشكيك فيها. وأظهرت عجز السلطة عن توفير الحدّ الأدنى من الرعاية للطبقات الشعبية الفقيرة. وقد كانت هذه الأسواق مستقلة تماماً عن مؤسسات الدولة وحتى عن تسيير حزب الجبهة الإسلامية المباشر في التفاصيل، ورفعت من أسهم الجبهة في الانتخابات التشريعية التي انقُلب عليها سنة ١٩٩٢.

إن تجربة أسواق الرحمة كانت أول تجربة يشعر فيها النظام بالحرج من مبادرة خيرية محدودة في الزمان والمكان، لأنه لا يريد مبادرات وجمعيات خارج هيمنته ولا تخدم أهدافه بل ربما تفعل عكس ذلك تماماً.

حدث الانقلاب ومرّت عشر سنوات عجاف من القمع والمجازر والحرب واستفرد النظام بكلّ شيء وكاد العمل الخيري الشعبي أن يتوقف، لولا جهود بُذِلت وكانت محفوفة بالمخاطر أبقت عليه حيّاً في أدنى مستوياته.

ثم جاءت سنة **١٩٩٩** ووصل معها سيّء الذكر عبدالعزيز بوتفليقة إلى رئاسة الدولة في الجزائر، بتخطيط وتحضير واتفاق بين جنرالات العسكر والمخابرات النافذين يومها، والذين ما كان أحد يجرؤ في الداخل أن يرفض لهم أمراً أو يخالف لهم قراراً.



وكانت أول أعمال بوتفليقة أن يعطي انطباعاً بأن الدولة تتخلّص من العسكرة والتوجّه الأمني الاستئصالي، إلى التوجّه المدني الذي تتبوّأ فيه الجمعيات والنقابات والأحزاب مكانة بارزة ومؤثّرة في الحياة العامّة.

طبعاً لم يكن بوتفليقة يريد من وراء هذا سوى التسويق لانفتاح موهوم وحياة مدنية مزعومة، تكون في خدمة أهدافه في التسلّط والهيمنة والانتقام من أعدائه وتلمّع صورته أمام الإعلام والساسة الغربيين، الذين كان حريصاً أشدّ الحرص على إرضائهم.

حدث إذن بعد عام ٢٠٠٠ أن تأسست مئات الجمعيات الخيرية بين وطني وولائي وبلدي، تعتني بالأيتام والأرامل والفقراء والمرضى والأمّيين، وتغيث الجزائريين في النكبات والكوارث، وترفع عنهم آثار الفاقة في المناسبات مثل رمضان والعيدين ودخول المدارس.

› وكان واضحاً أن هذه الجمعيات سدّت نقصاً هائلاً وغياباً شبه كامل للدولة في العناية بهذه الفئات ومرافقتها. كما كان واضحاً أنها لم تكن تحصل من الدولة إلا على الفتات من الدعم المالي بينما كانت الأموال توزّع بسخاء على جمعيات التملّق للرئيس وحاشيته وعلى الفنانين والمهرجانات الفنية والثقافية، زعموا.

› ولعل من أبرز ما يمكن ملاحظته أن الغالبية العظمى من هذه الجمعيات كان مؤسسوها ومنتسبوها والناشطون فيها إما الإسلاميين، أو من الشباب والكهول المتدينين والمحافظين الذين لا يُعرف لهم انتساب تنظيمي واضح للتيار الإسلامي.

› وقد كان مفهوماً توجّه الإسلاميين شباباً وكهولاً إلى العمل الخيري بقوة، فقد حرمهم النظام من أي مشاركة حقيقية وفعّالة في الشأن العام وهمّشهم وأقصاهم ولم يُبقِ لهم باباً مفتوحاً لخدمة شعبهم والحضور في الميدان إلا من خلال العمل الخيري بتأسيس الجمعيات، التي كان يتحكّم في منحها الاعتماد القانوني ويتعسّف أحياناً كثيرة في ذلك لأوهى الأسباب ويتشدّد في تجديد مكاتبها ومراقبة وثائقها والتدقيق في حساباتها بما لا يفعله إلا نادراً مع الجمعيات الموالية له أو السائرة في ركابه.

كما أن هناك سبباً آخر لتوجّه شباب وكهول الإسلاميين نحو العمل الخيري، وهو أنه كان المجال الأبعد عن المخاطرة ومصادمة النظام، وأن كثيراً جداً منهم كانوا ناقمين على ما آلت إليه أحوال العمل الإسلامي سواء في شقّه الجهادي المسلّح الذي كان ظاهراً أنه انهزم وفُكك، أو في شقّه السياسي الذي كان ظاهراً أيضاً أن النظام استطاع احتواءه وسحبه إلى مربّعه؛ بل والتحالف معه في معادلة غريبة نشاز ما زالت غير مفهومة في كثير من تفاصيلها إلى يوم الناس هذا.

عشرون سنة كاملة مضت من العمل الخيري. مئات الجمعيات التي ما تركت نشاطاً خيرياً إلا أسهمت فيه. آلاف من الشباب المستقيم النزيه المتديّن أو المحافظ الذي يصل ليله بنهاره في جمع الأموال والمساعدات وتوزيعها. أوقات وجهود وموارد ضخمة تُنفَق في هذه الجمعيات. ضغوط وتعقيدات إدارية كبيرة ومثبّطة تتحملها هذه الجمعيات وتصبر عليها وتتعامل معها بخليط من الذكاء والصبر والملاعبة والمداهنة والمهادنة بل والإذلال أحياناً.

وبرغم ذلك كلّه وصل إحسانها وخيرها إلى كل بادية وقرية ومدينة وريف؛ بل إن جمعيات مثل (هيئة الإغاثة) التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين و(الإرشاد والإصلاح) و(جزائر الخير) و(البركة) وغيرها تعدّى نفعها إلى شعوب أخرى، في البوسنة والهرسك وفلسطين وبورما ومخيمات اللاجئين من الصحراء الغربية وغيرها.



ويبقى السؤال الملحّ:

- ماذا استفادت هذه الجمعيّات بعد بذل كلّ هذه الجهود؟

- من يستفيد من هذه الأموال والموارد والنفقات الضخمة؟ الشعب أم السلطة أو هما معًا؟

- هل تتعامل السلطة ببراءة وحيادية مع بذل وعطاء وتوسع هذه الجمعيات؟ أم هي توظّفها في مشروعها الكبير وتجعلها ترساً في منظومتها الغالبة المتسلّطة ؟

- هل تدرك وتعي قيادات هذه الجمعيات أين تنتهي الرسالية في مشروعاتها وأين تبدأ الوظيفية؟ أم ترى ذلك غير مؤثّر ولا مهمّ؟

وأسئلة أخرى كلها متفرّع عن هذه الأسئلة أو مرتبط بها بشكل أو بآخر.

من منطلق إيمانيّ صِرف لا شكّ أن الأجر والثواب مضمون لكلّ من يفعل الخير، ويغيث الملهوف ويحمل الكَلّ ويتعاون على البرّ ويدخل السرور على المسلمين ويقضي عنهم ديونهم ويسعف مرضاهم، إذا صدقت المقاصد وخلصت النيّات.

ومن منطلق اجتماعي لا شكّ أن العمل الخيري يحيي مشاعر التراحم والتكافل، التي هي أحد مرتكزات البناء الاجتماعي للأمة المسلمة.

ومن منطلق أخلاقيّ لا شك أن بذل المال من طرف الأغنياء أو بذل الجهد والتنظيم والإحصاء والتحرّي من طرف الجمعيات، يطهّر الأنفس من الشحّ والتعلّق بالمال ويخلّصها من فردانيتها وانكفائها على ذاتها.

هذه المقاصد الجميلة والغايات النبيلة متحققة كلها في العمل الخيريّ. ويشعر بها ويعيشها من انتدبوا أنفسهم وسخروا جهودهم في هذا الباب لسدّ هذه الثغرات والثغور.

لكن هل يكفي جمال القصد ونبل الغاية وحده في مثل هذه الأوضاع الاستثنائية والشاذّة غير السويّة التي تعيشها شعوب الأمّة المسلمة؟



في أي نهر تصبّ جهود الجمعيات؟

وأيّ مشروع تخدم؟

لا أحد لديه مسكة من عقل ويشعر بالانتماء إلى شعبه وأمته ويدرك روابط الولاء ومقتضياته، يدعو إلى وقف الإحسان أو قبض الأيدي والشحّ بالمال وترك المسلمين يموتون جوعاً وبرداً ومرضاً وتشرداً بلا مأوى؛ بل لعلّ ذلك قد يكون جريمة إيمانية وأخلاقية وإنسانيّة عند تحقق القدرة ووجود الموارد الماديّة والبشريّة.

في وضعٍ لا تأبه فيه الأنظمة ومؤسساتها بمئات الآلاف من الفقراء والمشردين وتجد من الحجج والمبررات الاقتصادية والسياسية والحسابات والإكراهات الحقيقية أو المتوهمة أو الكاذبة، ما يجعل السذّج والطيبين يصدقونها ويلتمسون لها الأعذار ويرجعون باللوم على أنفسهم ويتّهمون عقولهم، بينما

يجتهد إعلام الأنظمة وسحرته في التدليس والتلبيس وإخفاء الحقائق وتبرئة المجرمين الحقيقيين.

إن المطلوب هو توجيه هذه الأموال والموارد والجهود والعطاء السخي والبذل الكريم نحو وجهة ترضي الله تعالى، وتحقق مقتضيات الإيمان به والولاء للمؤمنين والبراءة من الظالمين والمجرمين، وترشيدها بحيث تؤدي دورها في إحياء الأمة ونهضتها وخلاصها من الاستبداد والفساد والطغيان وأداء دورها في الشهادة على الأمم.



- فكيف تنظر الجمعيات لهذا الأمر؟
- وهل تفكّر فيه وتستحضره في تخطيطها ومشروعاتها أصلاً؟
- وما التحدّيات التي تنتج عن هذه الغفلة؟

سيكون ذلك موضوع الجزء الثاني من هذه المقالة إن شاء الله تعالى..



بل الميتة الجاهلية في بيعة هؤلاء ١/٢

عبد الله الصعيدي

يتعلق علماء السلطة وعملاء الشرطة بحديث النبي ﷺ: **«مَن ماتَ وليس في عُنُقِه بيعةٌ، ماتَ مِيتَةً جاهليةً»**[١]. وفَهِمَ الظاهريةُ الجُدُد من الحديث أنَّ تاركَ البَيْعَة وتاركَ الإسلام سواءً بسواء! فَنَفَروا خِفافاً وثِقالاً إلى بَيْعة وُكَلاء الغرب، وحَرَّضوا على مُخالِفيهم واسْتَعْدَوا عليهم الأُمراءَ والرؤساءَ!

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، (٣/١٤٧٨/ح١٨٥١).

والحديث ليس على ظاهِره، ولا يُرادُ بالْمِيتة الجاهلية الْمَوتُ على غير الإسلام، وإنما قُصِد بالنَّصِّ إرساءُ مبدئيَّة الطاعة والانقياد إلى تعاليم السلطة النائبة عن مقام النبوة في إقامة الفرض وعِمارة الأرض، ولا ريبَ أنَّ هذا لازمٌ من لوازِم بِناءِ الدولة وترسيخِ هَيْبَتِها، وقد كان أهلُ الجاهلية يَأنَفُون من أصلِ الانقياد لأيِّ جِهة. قال القاضي عياض: «ماتَ مِيتةً جاهلية»، أي: على هيئة ما ماتَ عليه أهل الجاهلية، مِن كونهم فوضى لا يَدِينون لإمام»[1].

وهذا الحديثُ الشريفُ وما جرى مجراه من الأخبار المنْصُوصَة والآثار المنْصُوبَة؛ التي تَنْطِقُ بفريضة الطاعة وتَفيضُ بها دواوين الإسلام؛ دالٌّ على مركزية الرعيَّة في نَحْتِ معالِم الإمامة، وأنها أثْقَلُ طَرَفَيْ العَقْدِ، لأنَّ الرعيةَ عاقِدٌ، والراعي معقودٌ له، وأَثَرُ العاقِد في الإبرام والنَّقْضِ آكَدُ مِن أثَر المعقود له، قال ابن هانئ: «سَأَلتُ أَبا عبد اللَّه عن حديث النبي ﷺ: **«من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية» ما معناه؟ قال أبو عبد الله: تَدْري ما الإمام؟ الإمام الذي يُجْمِع المسلمون عليه، كُلُّهم يقول: هذا إمام، فهذا معناه»**[2].

قال الإمام الغزالي في انعِقادِ الخلافة البَكْرِية: «وَلَو لم يُبايِعْه غيرُ عُمَر، وبقيَ كَافَّةُ الخَلْق مخالفين أو انقَسَموا انقساماً متكافئا؛ لَا يتَمَيَّز فِيهِ غَالبُ عَن مغلوب، لما انْعَقَدَت الإمامةُ، فإنَّ شَرط ابْتِدَاء الِانْعِقَاد قيامُ الشَّوْكَة وانصرافُ الْقُلُوب إلى المشايعة، ومُطابقَةُ البواطن والظواهر على الْمُبَايعَة»[3].

وقال شيخ الإسلام: «إنما صار- عُمَرُ- إماماً لماً بايَعوه وأطاعوه، ولو قُدِّر

(١) إكمال المعلم، ط١ دار الوفاء، (٦/٢٥٨).

(٢) مسائل ابن هانئ، ط المكتب الإسلامي، (٢/١٨٥)، وانظر: السنة للخلال، ط١ دار الراية، (١/٨٠).

(٣) فضائح الباطنية، ط مؤسسة دار الكتب الثقافية، (ص١٧٧).

أنهم لم يُنفِّذوا عهد أبي بكر ولم يبايعوه لم يَصِرْ إماماً... وإنما صارَ إماماً بمبايعة جمهور الصحابة، الذين هم أهل القُدْرة والشوكة»[1].

وفي الحديث: «**يَدُ الله على الجماعة، فعليكم بالسواد الأعظم، فإنه من شذَّ شَذَّ في النار**»[2]. قال المناوي: «أيْ: الزَمُوا متابعَة جماهير المسلمين، فهو الحق الواجب والفرض الثابت الذي لا يجوز خلافُهُ، فمَنْ خالَفَ ماتَ مِيتةً جاهلية»[3].



وصحَّ عن رسول الله ﷺ قوله لحذيفة بن اليمان: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»[4]. ومما فُسِّرت به الجماعةُ السوادُ الأعظمُ من أهل الإسلام، قال العلامة المحقِّق محمد أنور شاه الكشميري: «اعلم أن الحديثَ يَدُلُّ على أن العِبْرَةَ بمعظم جماعة المسلمين، فلو بايَعَه رجلٌ واحدٌ، أو اثنان، أو ثلاثةٌ،

---

(١) منهاج السنة، ط١ جامعة الإمام، (١/٥٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب: الفتن، باب: مَا جَاءَ فِي لُزُومِ الجَمَاعَةِ، (٤/٤٦٦/ح٢١٦٧)، وحسَّنه الألباني بمجموع الطرق في الصحيحة (٣/٤٠٥/ح١٣٣١)، دون زِيادة: «ومَن شذَّ شذَّ في النار».

(٣) فيض القدير، ط١ المكتبة التجارية الكبرى، (٢/٤٣١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، (٤/١٩٩/ح٣٦٠٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، (٣/١٤٧٥/ح١٨٤٧).

فإنـه لا يكـون إمامًا مـا لـم يُبَايِعْـهُ مُعظمُهُـمْ، أو أهـلُ الحَـلِّ والعقدِ»[1].

وقـال الإمـام الشـوكاني: «مَـن لـم يُبايِعْه المسـلمون فـلا ولاية له، ولا يَسـتحقُّ أن يُباشـر مـا يُباشـرُه الإمـامُ كُلًّا ولا جُـزءً، لأنَّ الولايـة سَـبَبُها البيعـةُ وإلـزامُ المسـلمين أنفُسَـهُم بهـا بمـا يَجِـبُ مـن الطاعـة»[2].

وقـال الشـيخ محمـد رشـيد رضـا: «وَالْقُـرْآنُ يُخَاطِـب جمَاعَـةَ الْمُؤمِنِيـنَ بِالْأَحْـكَامِ التِـي يشـرعها؛ حَتَّـى أَحْـكَام الْقِتَـال وَنَحْوهَـا مـن الْأُمُـور الْعَامَّـة التِـي لَا تتعلَّـق بالأفـراد، وَقـد أَمـر بِطَاعَـة أولـي الْأَمـر - وهُـمُ الْجَمَاعَـة- لَا ولـيَّ الْأَمـر، وَذَلِـكَ أَن ولـيَّ الْأَمـر وَاحِـدٌ مِنْهُـم، وإنمـا يُطـاع بتأييـد جمَاعَـةِ الْمسـلمين الَّذيـن بَايعُـوهُ»[3].

وتَعْتَضِـدُ هـذه النُّقُـول بِفِعْـلِ راوي الحديـث نفسِـهِ؛ عبـد الله بـن عُمـر رضـي الله عنهمـا؛ لأنـه عَلَّـق البيعَـة أيـامَ علِـيٍّ وأيـامَ معاويـة، وأيـامَ ابـن الزبيـر وعبد الملـك بـن مـروان، حتـى اتفـقَ الأمـر لعلـيٍّ، وحتـى اصطَلَـحَ معاويـةُ مـع الحَسَـنِ عـامَ الجماعـة، وحتـى قُتِـلَ ابـن الزبيـر واسْـتَتَبَّ الأمـرُ لعبـد الملـك، قـال الحافظ العسـقلاني: «وكان عبـدُ الله بـن عُمـر فـي تلـك المـدَّة امتَنَـع أن يُبَايِـع لابـن الزبيـر أو لعبـد الملـك، كمـا كان امتَنَـع أن يُبايِـع لِعَلـيٍّ أو معاويـةَ؛ ثـم بايَـعَ لمعاويَـة لمـا اصطلـح مـع الحسـن بـن علـي واجتمـع عليـه النـاس؛ وبايَـعَ لابنـه يزيـد بعـد مـوت معاويـةَ لاجتمـاع النـاس عليـه، ثـم امتَنَـعَ مـن المبايعـة لأحـدٍ حـال الاختـلاف إلـى أن قُتِـل بـن الزبيـر وانتَظَـم الْمُلـك كُلُّـه لعبـد الملـك، فبايَـعَ لـه حينئـذ»[4].

---

(١) فيض الباري، ط١ دار الكتب العلمية، (٤/٤٥٥).

(٢) السيل الجرار، ط١ دار ابن حزم، (ص٨١٩).

(٣) الخلافة، ط الزهراء للإعلام العربي، (ص٢١).

(٤) فتح الباري، ط دار المعرفة، (١٣/١٩٥).

فَقد كانت الرعِيَّةُ مَركَزَ الثِّقل وعَمودَ السارية في صياغةِ رأسِ الهَرَم وإفرازِ قِمَّتِه، لأنها الحقلُ الذي تُسْتَنْبَتُ فيه القيادة العلمية والعسكرية والسياسية، بخلاف ما نحن عليه اليوم؛ فإنَّ النظامَ العربيَّ المعاصرَ يُسْتَولَدُ في محاضِن التمثيل السياسي التي تُسَمَّى مجازاً بـ «السَّفَارات»، وهي في الحقيقة «غُرَفُ عمليات» تُرَكَّبُ فيها «القراراتُ الوطنيةُ» مِنْ قِطَع غيارٍ مُستَوْرَدَة!

لذلك يلزمُ تحريرُ مفهوم الجماعة في منظور الشريعة، هل هي جماعةٌ مُطلَقَةٌ؟ أمْ تُشتَرط لها شروطٌ في الاعتداد والاعتبار؟ لا رَيْبَ أنها جماعةٌ مَوْصُوفةٌ بأوصاف تُقَيِّدُ إطلاقها، واستجلاءُ تلك النُّعُوت إنما يكون بتقرير معنى الجماعة في أيام التنزيل، والجماعةُ يومئذٍ جماعةٌ ناهِضَةٌ بالحق، أمَّارةٌ بالقِسْط، مُؤَثِّرَةٌ في نَصْبِ الأئمَّة وتعيين الحُكَّامِ، فهل يَجْري هذا المفهوم على واقعنا المعاصر؟ لاسيما إذا تقرَّر أن مفهوم البيعة مفهومٌ عمليٌّ لا عَقَديٌّ، وليس من لوازمه اعتقادُ إمامة فلان أو علان، بل الواجب السعيُ في نصبِ الحاكم الشرعي، إلا ما كان مِن شأنِ الخلفاء الراشدين، فأَمرُهُم على التعيين لما تعلَّق بذواتهم من خصوصية الرشد والشهادة لأعيانهم بالجنان، والتوصية النبوية بالاستمساك بمسالكهم المهدية. قال الشيخ محمد رشيد رضا: «لفظ الجماعة إنما كان يُراد به جماعةُ المسلمين؛ التي تُقِيم أمرَ الإسلام بإقامة كتابه وسنة نبيه ﷺ، ولكنْ صارت كلُّ دولةٍ أو إمارةٍ مِن دُوَل المسلمين تحمل كلمةَ الجماعة على نفسها، وإن هَدَمَت السُّنَّةَ وأقامت البدعةَ وعَطَّلَت الحدودَ وأَبَاحَت الفجور»[1]!

ويشهد لهذا التحرير قوله ﷺ في توصيف الْمُرتَدّ: **«التاركُ لدينه المفارقُ**

---

(١) تفسير المنار، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، (٦/ ٣٠٣).

للجماعـة»[1]. فالمقصودُ بمفارقـة الجماعـة هنـا الارتـدادُ عن الديـن والمروقُ مِن الإسـلام المعَبَّـرِ عنـه بالجماعـة، ومعلـومٌ أنَّ الإسـلامَ حَقٌّ مطلُـق لا يأتيـه الباطل مـن بيـن يديـه ولا مـن خَلْفِـهِ. لذلـك ينبغـي تخريـجُ كافَّـة معانـي الجماعـة الـواردة في النصـوص على هـذا المعنـى الكُلِّـي، ورَدِّ المعانـي الفرعيـة إلى هذا الأصـل الجامـع في تحريـر مفهـوم الجماعـة. ومـا وَقَـع في تفاسـير أهـل العلـم لــ: «الجماعـة» بأنهـم أصحـاب رسـول الله، أو فقهـاء الْمِلَّـة، أو الأئمـة والخلفـاء، أو السـواد الأعظـم مـن أهـل الإسـلام [2]، فَمَوْئِـلُ ذلـك كُلِّـه إلـى اتِّبـاع الخطـاب الشـرعي تَلَقِّيـاً واسـتدلالاً، إذْ هـو المعنـى الناظِـم لكافَّـة الأقاويـل المذكـورة في تعييـن معنـى الجماعـة. وفي الحديـث: «إنَّ أمتـي سَـتَفْتَرِق على اثنتيـن وسـبعين فِرقـةً، كلها في النـار إلا واحـدة؛ وهـي الجماعـة[3]» وفي لفـظٍ: فقيـل لـه: مـا الواحـدة؟ قـال: «ما أنـا عليـه وأصحابـي[4]».

قـال ابـنُ مسـعود: «الجماعةُ الكتابُ والسـنةُ وإنْ كنتَ وحدَكَ[5]».

وقـال ﷺ: **«الجماعـةُ مـا وافَـقَ الحـقَّ وإن كنـتَ وحـدك»**[6]. قـال نعيـم بـن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الديات، باب قول الله تعالى: {أن النفس بالنفس والعين بالعين...} (٩/٥/ح٦٨٧٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب: القسامة، باب: ما يباح به دم المسلم، (٣/١٣٠٢/ح١٦٧٦) واللفظ له.

(٢) ممن عدَّد هذه الوجوه في شرح معنى الجماعة الإمامُ الطبري، واختارَ أنَّ لزوم الجماعة بلزوم إمام المسلمين والوفاء ببيعته، كما في شرح البخاري لابن بطال، ط٢ مكتبة الرشد، (١٠/٣٥-٣٣). واختيارُهُ فَسَّرَهُ الإمامُ الشاطبيُّ وجَعَلَه آيِلاً إلى التزام الحق كما أسلَفنا تقريره، فقال: «وحاصله أن الجماعة راجعةٌ إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة، وذلك ظاهِرٌ في أنَّ الاجتماعَ على غير سنة خارجٌ عن معنى الجماعة المذكورة في الأحاديث». الاعتصام، ط المكتبة التجارية الكبرى، (٢/٢٦٥). وانظر: مجموع الفتاوى، ط المجمع، (٣/٣٤٧)، إتحاف الجماعة، ط٢ دار الصميعي، (١/٢٦٧).

(٣) أخرجه أحمد في المسند، مسند الشاميين، (٢٨/١٣٥/ح١٦٩٣٧)، وصححه الألباني في الصحيحة، (١/٤٠٤)، وله فيه بحث نفيس.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن، أبواب: الإيمان، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، (٤/٣٢٣)، والحاكم في المستدرك، كتاب العلم، (١/٢١٨/ح٤٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٢/٩٤٣/ح٥٣٤٣).

(٥) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه، ط٢ دار ابن الجوزي، (٢/٤٠٤).

(٦) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، ط٨ دار طيبة، (١/١٢١/ح١٦٠).

حماد مُعلِّقاً: «إذا فَسَدَت الجماعةُ فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن يَفْسُدوا، وإن كنتَ وحْدَك، فإنك أنت الجماعةُ حينئذٍ»[1].



وقال أبو شامة المقدسي: «وحيث جاء الأمرُ بلزوم الجماعة، فالمرادُ لُزُوم الحق واتِّباعُه، وإن كان المتمسِّك به قليلاً والمخالفُ له كثيراً؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابِهِ، ولا نَظَرَ إلى كثرة أهل الباطل»[2]. فالجماعة في ميزان الوحي جماعةُ أفهامٍ لا جماعة أجسام، وإنما الجُسُوم تَبَعٌ للفُهُوم، ولا يَحِلُّ أن تَنعَقِدَ القلوبُ على غير مضمون الرسالة. ومما حَبَّره الإمام الشافعي في شرحه لحديث: «من أراد منكم بَحْبَحَةَ[3] الجنةَ فليلزم الجماعةَ»[4]. قوله: «إذا كانت جماعَتُهُم متفرقةً في البلدان، فلا يَقْدِر أحدٌ أن يَلزَم جماعةَ أبدانِ قومٍ متفرقين، وإنْ وُجِدَت الأبدانُ تكون مجتمعةً

---

(١) المدخل للبيهقي، ط١ دار المنهاج، (١/٤٢٠ح٩١٠).

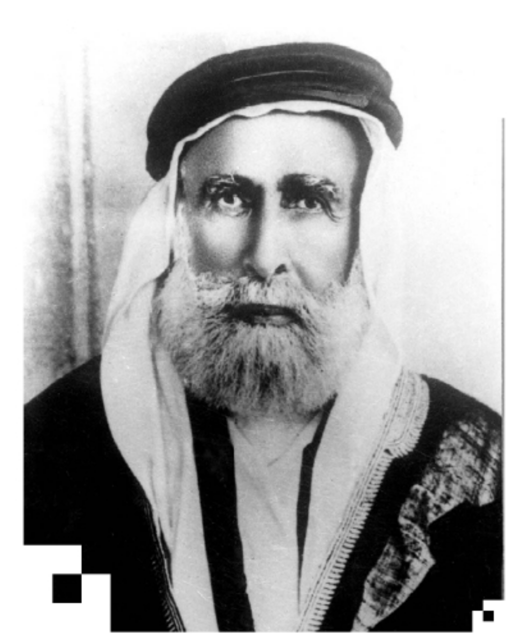
(٢) الباعث، ط١ دار الهدى، (ص٢٢).

(٣) البَحْبَحَةُ من التَّبَحْبُحُ وهو التمكن في الحلول والمُقام، وبَحبوحة الدار وسَطُها. انظر: مختار الصحاح، ط٥ المكتبة العصرية، (ص٢٩).

(٤) أخرجه أحمد في المسند، مسند العشرة المبشرين، (١/٢٦٩ح١١٥)، وصححه الألباني في الصحيحة، (١/٧٩٢ح٤٣٠).

من المسلمين والكافرين والأتقياء والفُجَّار، فلم يكن في لزوم الأبدان معنى، لأنه لا يُمكن، ولأن اجتماع الأبدان لا يصنع شيئاً فلم يكن لِلُزوم جماعتهم معنى، إلا ما عليهم جماعَتُهُم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما. ومَن قال بما تَقُول به جماعةُ المسلمين فقد لزم جماعَتَهم، ومن خالَفَ ما تقول به جماعةُ المسلمين فقد خالف جماعَتَهم التي أُمِرَ بلزومها»[١].

ومن النماذج التطبيقية على اعتبار مفهوم الجماعة في ميزان الإسلام، والتقيُّد بطبيعة الجماعة المُفَوَّضة حَّلاً وعقداً، نَكْثاً وفَتْلًا، إبطالُ بيعةِ أهل الشام للملك حسين، لأنهم كانوا تحت وطْأةِ الإنجليز، والملك حسين يومها موظَّف بريطاني برتبة ملِك! قال الشيخ محمد رشيد رضا: «أما مَن بايَعَه مِن أهل سورية وفلسطين والعراق، فَهُم تحت سيطرة دولتين أجنبيتين قويتين؛ لا يملكون من أمرهم طاعةَ حاكمٍ آخَر. وإنما المبايعة على السمع والطاعة في الجهاد وأموال الزكاة وإقامة الحدود وغير ذلك من الأحكام، فلا الملك حسين يستطيع أن يقيمَ شيئاً من هذه الأحكام في هذه البلاد، ولا أهلُهَا قادرون على إعطائه هذه الاستطاعة، ولا على طاعته إذا هو أمَرَ بشيءٍ منها»[٢].



والحديثُ بعد التي والَّتَياَّ ليس على ظاهره، لجريان لفظه في سياقات حديثِيَّةٍ متعدِّدةٍ؛ بعضُها مُجمَلٌ؛ وبعضها أقرب إلى التَّبيين والتفصيل، اشتَمَلَت على الخروج بالسيف والارتداد عن الإسلام والانحياز إلى عُصَبٍ

(١) الرسالة، ط١ مكتبة الحلبي، (ص٤٧٣).
(٢) مجلة المنار، (٢٥/٢٥٧)، عدد رمضان ١٣٤٢هـ.

عُمِّيَةٍ... كقوله ﷺ: **«مَن رأى مِن أميره شيئا يَكْرَهه فليصبر عليه، فإنه مَن فارق الجماعة شِبراً فمات، إلا مات مِيتةً جاهليةً»**[1].

وقوله ﷺ: **«مَن خَلَع يَداً مِن طاعة لَقِي الله يوم القيامة لا حُجَّة له، ومَن مات وليس في عنقه بيعةٌ، مات مِيتةً جاهلية»**[2].

وقوله ﷺ: **«مَن خرج من الطاعة وفارَقَ الجماعةَ فمات، مات مِيتةً جاهلية، ومَن قاتل تحت راية عُمِّيَّةٍ؛ يَغضَبُ لعصبةٍ؛ أو يدعو إلى عُصبةً؛ أو ينصر عُصبةً، فقُتِل، فَقِتْلَةٌ جاهلية، ومَن خرج على أمتي، يَضرِبُ بَرَّها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه»**[3]. وهذا في الاحتراب على الدنيا والاقتتال على الْمُلك، قال أبو العباس القرطبي: «وقد أبعَدَ مَن قال إنهم الخوارج؛ فإنهم إنما حَمَلَهم على الخروج الغيرةُ للدِّين لا شيءٍ من العَصَبِية والملك، لكنهم أخطئُوا التأويلَ وحَرَّفوا التنزيل»[4].

ونظير هذا ما ذَكَرَه الشوكاني في براءة ساحة الحسين ﵁ من شُبهة الخروج، فقال: «لا ينبغي لمسلمٍ أن يَحُطَّ على مَن خَرَج من السلف الصالح؛ مِن العِترة وغيرهم؛ على أئمة الجَوْر، فإنهم فَعَلوا ذلك باجتهادٍ منهم، وهُم أتقى لله وأطوعُ لسنة رسول الله مِن جماعة ممن جاء بعدهم من أهل العلم، ولقد أَفْرَط بعضُ أهل العلم كالكرامية ومَن وافَقَهُم في الجمود على أحاديث الباب، حتى حكموا بأن الحسين السبط ﵁ وأرضاه باغٍ على الخِمِّير

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، (٣/١٤٧٦/ح١٨٤٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، (٣/١٤٧٨/ح١٨٥١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، (٩/٦٢/ح٧١٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، (٣/١٤٧٧/ح١٨٤٩).

(٤) المفهم، ط١ دار ابن كثير، (٤/٦٠).

السِّكير الهاتِك لِحُرَم الشريعة المطهرة؛ يزيد بن معاوية لعنهم الله؛ فيا لله العَجَبُ من مقالاتٍ تقشعرُّ منها الجلود، ويتصدَّعُ من سماعها كل جُلْمُود»[١].

قال الإمام النووي: «والتشديداتُ الواردةُ في الخروج عن طاعة الإمام وفي مخالفته؛ كحديث: «من حمل علينا السلاح فليس منا» وحديث: «من فارق الجماعة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه» وحديث: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمِيتَتُه جاهلية» كلها محمولةٌ على مَن خرج عن الطاعة



وخالَفَ الإمامَ بلا عُذرٍ ولا تأويل»[٢].

ثم ما مضمونُ البَيْعَة التي مَنْ ماتَ دُونَها كانت مِيتَتُهُ جاهليةً؟ أَهِي بَيْعةٌ على أصول الشريعة وصريحِ الوحي؟ أم بيعَةٌ على امتِدادِ النفوذ الغربيِّ وهَيْمَنةِ نُظُمِهِ الوضْعِيَّة على جُمهور أهلِ الإسلام؟

هذا ما نتابع الجواب عنه في المقال القادم إن شاء الله

---

(١) نيل الأوطار، ط١ دار الحديث، (٢٠٨/٧).

(٢) روضة الطالبين، ط٣ المكتب الإسلامي، (٥٠/١٠)، وانظر: دليل المحتاج، (٣٣٤/٣).



عسكر مصر
والثــــورة
(الجزء الأول)
للقصة بقية
محمود جمال

مقدمة:

تعاملت المؤسسة العسكرية منذ أول لحظة من اندلاع الثورة المصرية في ٢٥ يناير ٢٠١١م، بخطة محكمة مدروسة حتى تصل في نهاية الأمر إلى إعادة تموضعها مرة أخرى والسيطرة على زمام الأمور من جديد.

حتى وإن تعاملت المؤسسة العسكرية بشكل إيجابي مع الثوار في بداية الثورة وكانت عامل ضغط على الرئيس الأسبق حسني مبارك للتخلي عن الحكم لوجود مصالح كانت تبحث عنها المؤسسة العسكرية في أواخر مدة حكمه، من العمل على "عدم المضي قدماً في مشروع التوريث".

إلا أن تلك الخطوات كانت محسوبة بدقة واتضح هذا جلياً في تفتيت القوى الثورية من خلال "صناعة الفرقة" التي عملت عليها المؤسسة العسكرية منذ تولي المجلس العسكري برئاسة المشير محمد حسين طنطاوي إدارة البلاد في ١١ فبراير ٢٠١١م، بما في ذلك ما حدث في الاستفتاء على التعديلات الدستورية في مارس ٢٠١١م، والانتخابات البرلمانية لمجلسي الشعب والشوري نهاية عام ٢٠١١م ثم الانتخابات الرئاسية في جولتيها في مايو- يونيو ٢٠١٢م.

واستمرت تلك الخطة في التعامل مع الرئيس محمد مرسي، أول رئيس مدني منتخب حكم الدولة المصرية، منذ اللحظات الأولى من توليه الحكم في يونيو ٢٠١٢م؛ فوضعوا أمامه العقبات، وصنعوا له الأزمات لخلق حالة من الضجر الشعبي عليه، حتى يصبح مطلب رحيل النظام مطلباً شعبياً يشكل غطاءً للمجلس العسكري لتدخل الجيش والانقضاض على الحكم من جديد بعد التخلص من أول تجربة ديمقراطية حقيقية شهدتها الدولة المصرية.

جدير بالذكر أنه عند قراءة الانقلابات العسكرية التي تمت في مصر وهي على الترتيب: انقلاب ١٩٥٢م، ووقوف الجيش مع ثورة يناير للانقلاب على مبارك، ثم انقلاب ٠٣ يوليو ٢٠١٣م، نرى أن الجيش كان يأخذ حراك الشارع



ستاراً من أجل التحرك وتحقيق أهدافه، ولكن الضجر الشعبي والحراك في الميادين كان حقيقياً عام ٢٠١١م، ولكن في انقلاب ٢٠١٣م، صنع الجيش ظهيراً شعبياً حتى يكون مبرراً لحراكه، ومن أجل هذا أنشأت المخابرات الحربية حركة تمرد ومولتها دولة الإمارات لتصبح هي الغلاف كحركة شبابية تقود الحراك.

قبل البدء في الكتابة حول ذلك الموضوع، الذي أحاول من خلاله أن أقدم تفسيراً لبعض أهم الأحداث في مرحلة هامة في تاريخ الدولة المصرية، وتحديداً فترة ما قبل يوليو ٢٠١٣م، ومحاولة الكشف عن المسارات التي وضعتها قيادات المؤسسة العسكرية، لتصل في نهاية المطاف للقضاء على أول تجربة ديمقراطية شهدتها الدولة المصرية، وصولاً إلى مايو ٢٠١٤م، بتنصيب عبدالفتاح السيسي على رأس الدولة، وما نتج عن هذا التنصيب وما أحدثه من تافقات وخلافات داخل المؤسسة العسكرية والأجهزة السيادية، أود أن أشير إلى أن بعض المعلومات التي ستذكر في هذه السطور ، هي نتاج لمقابلات مع بعض المطلعين على تلك المرحلة من العسكريين السابقين، بطرق مباشرة، وغير مباشرة.

أولاً: أسباب وقوف الجيش مع ثورة يناير:

قبل الدخول في مرحلة فترة حكم الرئيس محمد مرسي، يجب الوقوف على أسباب وقوف الجيش مع ثورة يناير، ومن وجهة نظر الباحث، أنه لولا وقوف الجيش المصري الإيجابي مع ثورة يناير ما كان لحكم الرئيس الأسبق حسني مبارك أن ينتهي.

ويرى الباحث أن هناك عدة نقاط هامة كانت ضمن أسباب وقوف الجيش المصري مع ثورة يناير وإجبار مبارك على التخلي عن الحكم، هي :

١- عدم شعور الجيش بتوجه الاحتجاجات نحوه بشكل مباشر، وهذا بسبب أن الجيش المصري لم يكن أداة من أدوات النظام لقمع الشعب أو المعارضة أيام مبارك، على الرغم من كونه حامياً للنظام.

٢- عدم تأييد الجيش للتوريث لأن في ذلك خروجاً على مبدأ "الحاكم ذي الخلفية العسكرية"، بالإضافة إلى أن التوريث يهدد امتيازات الجيش، وتقديره أن الاحتجاجات ستوقف التوريث فقط، وأنه قادر على استعادة زمام الأمور مرة أخرى.

٣-اتصاف الثورة بالشعبية منذ جمعة الغضب ٢٨ يناير ٢٠١١م، وسلميتها.[1]

تلك الأسباب من وجهة نظري، فضلاً عن وجود إشارات واضحة من الولايات المتحدة الأمريكية تفيد بعدم الوقوف أمام التغيير، كانت الدافع الأساس لوقوف الجيش مع ثورة يناير، ولا أرى أن الجيش وقف مع ثورة يناير ٢٠١١م من أجل تحقيق تحول ديمقراطي حقيقي، أو ليصبح الحكم حكماً مدنياً متعاقباً، ويعود الجيش إلى مهامه المنوط بها في حماية البلاد من المخاطر والتهديدات؛ وربما هذا ما يفسر أسباب وقوف الجيش ضد الرئيس محمد

مرسـي مـن أول لحظـات حكمـه، إذ يـرى العسـكريون ممـن أُجريـت المقابـلات معهـم، أنـه لـو فـاز أحمـد شـفيق على الرئيس الأسـبق مرسـي في جولة الإعادة يونيـو ٢٠١٢م، لـكان تعامـل الجيـش معـه مختلفـاً تمامـاً، إذ قـال أحد العسـكريين "هـؤلاء لـم ولـن يسـمحوا أبـدأ أن يحكـم مصـر رئيـس مدنـي، ولـن يعطـوا التحية العسـكرية أبـداً لشـخص ذي قميـص وبنطـال".



أود أن أشـير هنـا إلـى نقطـة هامـة، لـم يتطـرق لهـا الكثيـرون، فالمجلـس العسـكري الـذي كان يتكـون مـن ٢٤ عضـواً أثنـاء ثـورة ينايـر ٢٠١١م، كانـوا جميعـاً بـلا اسـتثناء، نظريـاً وبـدون أي خـلاف حـول هـذا الأمـر، مـع رحيـل مبـارك مـن أجـل التخلـص مـن قصـة التوريـث التـي كان مبـارك يجهـز لهـا حتى يصبـح جمال مبـارك رئيسـاً لمصـر؛ ولكـن كانـت هنـاك وجهتـا نظـر داخـل المجلـس:

وجهـة النظر الأولى:

كانـت ترى اسـتغلال الحـراك للتخلص من مبـارك، وملف التوريث.

وجهة النظر الثانية:

كانت ترى أن خروج مبارك في توقيت ثورة يناير ٢٠١١م سيدفع الناس للتجرؤ على منظومة الحكم العسكري ويصبح الحراك عادة يقوم بها الشعب في الفترات المقبلة، وهذا سيكون تهديداً حقيقياً للحكم العسكري على المدى القريب والبعيد، وكانوا يرون مواجهة الحراك بالقوة وكان اللواء حسن الرويني قائد المنطقة المركزية وقت ثورة يناير ٢٠١١م، يتبنى وجهة النظر تلك.[٢]

جدير بالذكر أن مبارك كان يسير على نفس المنهاج الذي أسسه عبدالناصر منذ عام ١٩٥٤م، وسار عليه أنور السادات الذي خلفه في الحكم عام ١٩٧٠م، فكانت المؤسسة العسكرية مستقلة عن مؤسسة الرئاسة، وكانت الدولة المصرية تُدار عن طريق مؤسستين هما مؤسسة الرئاسة والمؤسسة العسكرية، ولكن القائد الأعلى لتلك المؤسستين هو رئيس الدولة والذي كان يعطي لكل مؤسسة أدواراً معينة، لذلك كانت المؤسسة العسكرية بشكل فعلي شريكة في الحكم ولها صلاحيات وأدوار في مختلف الملفات، ولم تكن لها الكلمة العليا في إدارة شئون البلاد.

ثانياً: المؤسسة العسكرية بعد ثورة يناير "فترة المجلس العسكري":

تنحى حسني مبارك، وفوض المجلس الأعلى للقوات المسلحة لإدارة شئون البلاد، في ١١ فبراير ٢٠١١م، ومنذ تلك اللحظة الفارقة مضت قيادات المجلس العسكري قدماً في تنفيذ مخططها المدروس لكي تمسك بزمام الأمور مرة أخرى.

المخطط بالأساس كان يسعى لتحقيق عدة أهداف بشكل متوازٍ، للتحكم في السلطة عن طريق "انقلاب ناعم" على ثورة يناير، كان من أبرز خطوات ذلك المخطط:



١ تنفيذ استراتيجية "صناعة الفرقة" بين رفقاء الميدان من الإسلاميين والليبراليين وكافة القوى المدنية الأخرى، فالمجلس العسكري عمل على تفتيت تلك القوى إعمالاً لمبدأ "فرق تسد". تلك الاستراتيجية كانت تعتمد بالأساس على التقارب في بداية الأمر مع القوى الإسلامية وعلى رأسها جماعة الإخوان المسلمين كما حدث في استفتاء مارس ٢٠١١م، فالمؤسسة العسكرية صورت الأمر على أن تفاهمات وتوافقات جرت بين الجيش والإسلاميين، بشكل عام في الموافقة على التعديلات الدستورية التي كانت ترفضها أغلبية القوى المدنية والثورية، حتى يحدث ذلك شرخاً بين القوى الإسلامية والقوى المدنية والعلمانية والثورية (من خلال الحديث عن التقارب بين القوى الإسلامية والمؤسسة العسكرية) وتقف تلك القوى في صف المعارضة للقوى الإسلامية وتصطف لمواجهتها.

وبعد إحداث ذلك الشرخ تتباعد المؤسسة العسكرية شيئاً فشيئاً من القوى الإسلامية حتى تكون أقرب للقوى المدنية والقوى الأخرى لكي يقفوا أمام القوى الإسلامية التي أصبحت تقف وحيدة. فكانت خطة المؤسسة العسكرية المدروسة في التعامل مع الملف السياسي تهدف أولاً إلى القضاء على أكبر فصيل سياسي شارك في الثورة، وبعد ذلك تتخلص من القوى

الأخرى شيئاً فشيئاً من حيث الأهمية، وهذا ما حدث بالفعل.

٢ فرض إعلانات ووثائق فوق دستورية تعطي المؤسسة العسكرية، صلاحيات وامتيازات، تمكنها من إدارة المرحلة بشكل منفرد، لذلك أصدر المجلس العسكري الإعلان الدستوري المكمل في يونيو ٢٠١٢ الذي كان بمثابة انقلاب على الثورة، بعد وثيقة السلمي التي صدرت في النصف الثاني من عام ٢٠١١، والتي صيغت "بالتنسيق مع الجيش" وكانت تهدف إلى "دسترة" السيطرة العسكرية على الأمور في البلاد.

٣ إفشال وتعطيل المؤسسات المنتخبة التي ستأتي بها الثورة، ولذلك عمل المجلس العسكري على حل مجلس الشعب الذي انتُخب بعد ثورة يناير، لضمان استمرارية المؤسسة العسكرية في سيطرتها على الأوضاع بالسيطرة على السلطة التشريعية، ومحاولة إطالة المرحلة الانتقالية، ولكي تظل السلطة التنفيذية والتشريعية في يد المؤسسة العسكرية.

٤ حسم الانتخابات الرئاسية لصالح مرشح تدعمه المؤسسة العسكرية، على أن يكون رجلاً ذا خلفية عسكرية، وأكد البعض في تلك الجلسات، أن المؤسسة العسكرية قدمت كل أنواع الدعم للفريق أحمد شفيق حتى يكون هو الفائز في الانتخابات الرئاسية في مايو ٢٠١٢م، ولكن بسبب ارتباط أحمد شفيق بمنظومة حسني مبارك التي قامت الثورة للقضاء على رموزها، فضلاً عن شعبية جماعة الإخوان داخل الشارع المصري في ذلك الوقت، كانت النتيجة لصالح الرئيس محمد مرسي.

ويرى البعض أن المؤسسة العسكرية رأت في ذلك التوقيت، ربما بضغوط خارجية، أن تزوير الانتخابات سيكون خطئاً استراتيجياً، وسيُدخل الدولة في حالة فوضى، وسيكون الضرر على المؤسسة العسكرية أكثر من نفعه، وكانت تري أن المنطقة ما زالت تمر بحالة ثورية، وبالتالي رأت تأجيل المواجهة لوقت آخر، مع إيمانها بقدرتها على إنهاء حكم الإخوان في أسرع وقت.



ثالثاً: المؤسسة العسكرية وحكم الرئيس مرسي:

المؤسسة العسكرية منذ اللحظة الأولى لحكم الرئيس محمد مرسي، لم تتقبل ذلك الأمر، وكانت تخطط للوصول إلى اللحظة الحاسمة التي تنهي فيها تلك التجربة، وتعطي درساً لمن يحاول أن يسير على نفس المنوال مرة أخرى.

قال لي أحد العسكريين إن أغسطس ٢٠١٢م كان تاريخاً هاماً داخل المؤسسة العسكرية، وصراعهم مع التجربة الديمقراطية، وتحديداً عند إقالة المشير محمد حسين طنطاوي من منصبه كوزير للدفاع، والفريق سامي عنان من منصبة كرئيس للأركان، وكذلك قادة الأفرع الرئيسية بالجيش المصري، أسباب تلك الإقالات وتحديداً إقالة كل من المشير طنطاوي والفريق عنان يتحدث عنها الكثيرون، ولكن من وجهة نظري الرواية الصحيحة التي دفعت الرئيس مرسي للإطاحة بالمشير طنطاوي لم تُروَ إلى الآن.

وبناء على ما ذكره بعض العسكريين السابقين، فإن قرار إقالة المشير طنطاوي، سبّب ضجراً كبيراً داخل الجيش المصري، في مختلف المستويات

"قيادات، ضباط" وهذا بسبب أن طنطاوي بالأساس له رصيد وشعبية داخل المؤسسة العسكرية فهو صاحب أكبر فترة يقضيها وزير دفاع داخل الجيش المصري "١٩٩١-٢٠١٢"، فضلاً عما عدوه من الرئيس مرسي "تجاوزاً لحدوده"، وذلك القرار استغلته قيادات الجيش فيما كانت ترده بعد ثورة يناير، بما في ذلك المشير طنطاوي نفسه واللواء حسن الرويني[٣]، أن الثورة تهدف إلى هدم وتفكيك الجيش. وبعد ذلك القرار كانت الندوات التثقيفية داخل الجيش الخاصة بالضباط تؤكد أن الرئيس مرسي وجماعة الإخوان يهدفون إلى السيطرة على الجيش أو هدمه، وأن هذه القرارات جاءت من أجل تحقيق أهدافهم تلك وأن قادة الجيش لن تسمح بذلك المخطط.

إذن فمعظم قيادات الجيش كانت مع قرار إنهاء حكم الرئيس محمد مرسي، إلا أن قرار الرئيس مرسي "غير المدروس" بتعيين مدير المخابرات الحربية "عبدالفتاح السيسي" وزيراً للدفاع في أغسطس ٢٠١٢م، ساعد وأسهم كثيراً في تضييق الخناق عليه بشكل أكبر.

الغريب في تلك الواقعة كما يصفها العسكريون، أنها كانت سابقة في التاريخ المصري الحديث أن يصبح مدير مخابرات حربية وزيراً للدفاع، بل عادة ما ينصح الأمنيون والعسكريون أن مديري المخابرات لا يجب أن يتولوا بعد خروجهم من مناصبهم مهاماً كمهام وزير الدفاع أو رئيس أركان، لأن مديري المخابرات تكون لديهم معلومات هامة ومفصلية عن الدولة، وإذا عينوا بعد خروجهم من مناصبهم في مناصب أعلى كوزراء دفاع أو رؤساء أركان وأصبح لهم صلاحيات بتحريك قوات فهذا خطأ استراتيجي كبير لأنهم سيصبحون ذوي قدرات وإمكانيات تؤهلهم للقيام بأي عمل ضد رأس السلطة في أوقات الاختلاف، وهذا ما فعله السيسي، ولكن مع غياب المعلومة يصبح كل شيء محتملاً، ويبدو أن الرئيس محمد مرسي ومساعديه لم يكن لديهم هذا الإدراك، و لا زالت حيثيات اختيار السيسي تحديدا لهذا المنصب من الأمور التي لم يكشف عنها النقاب حتى الان.

تشير الدلائل والمعلومات المتوافرة من مصادرنا المختلفة أن الجيش قد حسم القرار بشكل نهائي ووضع الجدول الزمني لرحيل نظام الرئيس مرسي في أوائل يونيو ٢٠١٣م، ولكن ما قيل لي في أحد المقابلات، أن المجلس العسكري المكون من ٢٤ عضو في يونيو ٢٠١٣م، كانت خطته بعد الإطاحة بالرئيس محمد مرسي أن يكون البديل رجلا عسكريا أخر، ولم يطرح اسم السيسي بأي شكل من الأشكال أنه سيكون هو ذلك الرجل العسكري الذي سيتولى الحكم بعد الانقلاب.



رابعاً: ما بعد ٠٣ يوليو ٢٠١٣م:

بعد تحقيق الهدف الأساس في ٠٣ يوليو ٢٠١٣م، بزغت بذور الخلافات بين قيادات الجيش المصري، وظهر لبعض قيادات المجلس العسكري أن خطة يوليو ٢٠١٣م، تلك الخطة الحقيقية، كان يعلمها السيسي وطنطاوي بالأساس ومعهم عدد قليل من قيادات المجلس العسكري، وتلك الخطة كانت تهدف لتصعيد السيسي وليس غيره رئيساً للجمهورية، وهو ما لم يرحب به لاحقا بعض قيادات المجلس العسكري "حالية كانت أو مستدعاة"

لأنها كانت ترى بأحقية وصولها إلى هذا المنصب، أو بأن السيسي لا يتميز عليهم بشيء يبرر تفضيله.

وكانت وجهة النظر السائدة أن يبقى السيسي في منصبه ويحصن، ولذلك مُرر قانون تحصين وزير الدفاع في ذلك التوقيت، ولكن السيسي واصل الاستمرار في خطته حتى يصل في نهاية الأمر لتحقيق مبتغاه وحلمه الذي تحدث عنه مع الصحفي ياسر رزق في ذلك التوقيت وسُرب: "حلمت إني كنت مع السادات بكلمه وقالي أنا كنت عارف إني هبقى رئيس الجمهورية، وقلت له: وأنا كمان عارف إني هبقى رئيس جمهورية"، و يرى البعض أن لقاء السيسي مع الصحفي ياسر رزق في ذلك التوقيت كان تمهيداً من السيسي للشعب بأنه سيكون الرئيس القادم، وذلك بعد نفيه أكثر من مرة أنه لا يطمع في الحكم.[٤]



الخلاف بين قيادات المجلس العسكري في ذلك التوقيت، لم يكن حول سيطرة الحكم العسكري، فمعظمهم كانوا يرون وجوب عودة السيطرة العسكرية سواء بشكل مباشر أو من وراء ستار، ولكن الاختلاف كان حول من

هو الحاكم الذي سيتولى الحكم. ويري البعض أن المواجهة بين الطرفين، الطرف غير المرحب بالسيسي وطرف السيسي ومن معه ويتفقون معه في خطته بدأت مباشرة بعد فترة قليلة من أحداث ٠٣ يوليو ٢٠١م، وما صرح به اللواء أحمد وصفي قائد الجيش الثاني "الأسبق" مع عمرو أديب بعد ٠٣ يوليو ٢٠١٣م: "لو السيسي أخذ رتبة زيادة أو اترشح للرئاسة قولوا انقلاب عسكري".

كانوا يرون أنها رسالة للسيسي بأنهم مصرون على تنفيذ الاتفاق بأنه لن يكون البديل[٥]، وحرصوا أنها تكون رسالة عن طريق الإعلام حتى يسببوا له إحراجاً أمام الشعب لو استمر في مخططه ورشح نفسه، وكان عنان من الأسماء المطروحة لتولي زمام الأمور في ٢٠١٤م، لذلك رشح عنان نفسه في انتخابات ٢٠١٤م، ولكنه تراجع بسبب الضغط الذي مورس عليه. إلا أن المجلس العسكري في ٢٠١٤م، صوت لصالح السيسي وليس لعنان للترشح لانتخابات الرئاسة في ٢٠١٤م، بناء على دور كبير لعبه المشير حسين طنطاوي وما لديه من رصيد عند كلا الطرفين، وهو من أقنع معظم أعضاء المجلس العسكري والمستدعين في حينه بالتصويت للسيسي كي يكون هو مرشح المؤسسة في ٢٠١٤م.

الجزء الثاني سيكون فى العدد القادم بإذن الله

---

[١] قراءة في كتاب العلاقات المدنية – العسكرية والتحول الديموقراطي في مصر بعد ثورة ٢٥ يناير، نون بوست، تاريخ النشر ٠٣ يوليو ٢٠١٦م،تاريخ الدخول ١٠ سبتمبر ٢٠١٨م، **الرابط**

[٢] المرصد العسكري – ٣١ يناير ٢٠٢٠، محمود جمال، المرصد، **الرابط**

[٣] التسريب الكامل لعضو المجلس العسكري اللواء حسن الرويني – **الرابط**

[٤] السيسي حلم بأنه الرئيس المقبل، **الرابط**

[٥] اللواء أحمد وصفي في لقاء سابق: لو السيسي أخذ رتبة زيادة أو اترشح للرئاسة قولوا انقلاب عسكري، **الرابط**


صبغة الله الهدوي
إخوة علي
خط الدفاع الأول ضد الاحتلال البريطاني
في الهـند

حتى في الظروف الصعبة تجد الأمة قائداً مناسباً لها، كما حدث في معركة حطين وعين جالوت وفي كل الفتوحات الإسلامية التي فتحت القلوب قبل أن تفتح البلدان والأمصار.

وفي عشرينات القرن الماضي، وفي أعقاب انهيار الخلافة العثمانية وصعود الطوائف المتناحرة على العروش العربية والإسلامية، واندلاع صراعات دامية في المجتمعات الدولية التي أطاحت بعروش الإمبراطوريات، كانت الهند تتجه اتجاهاً آخر إذ هبت لجمع شمل المسلمين والتضامن معهم ضد الأطماع البريطانية التي اتسعت رقعتها على الخريطة الإسلامية، فكانت مهد انطلاق حركة الخلافة الإسلامية في الهند تضامناً مع الخلافة العثمانية التي انقض جدارها وتآكل جسدها.

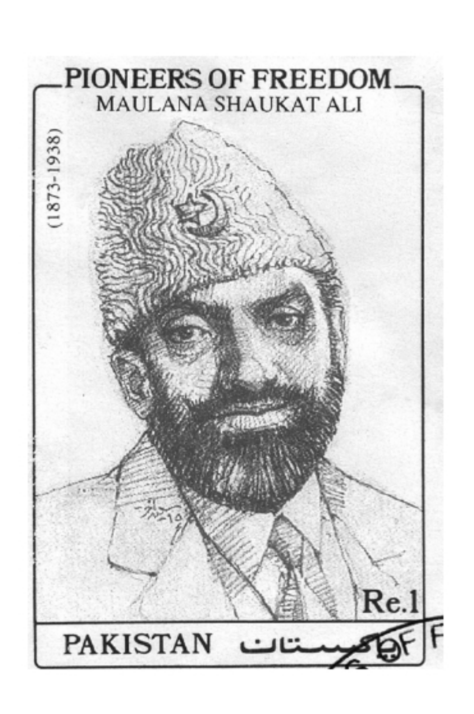
وربما لم يرهف التاريخ إلى تلك البطولات التي قام بها مسلمو الهند، في الوقت الذي انشغل العالم العربي بالتكالب على أنقاض الخلافة العثمانية، واجتمع محيطه وخليجه في خيام المستعمرين بحثاً عن الثغرات في صرح الخلافة، حقاً كانت تلك البطولات لحظة حاسمة في سجل تاريخ الأمة، وكانت أقوى وأعجب من الأفلام الهندية.

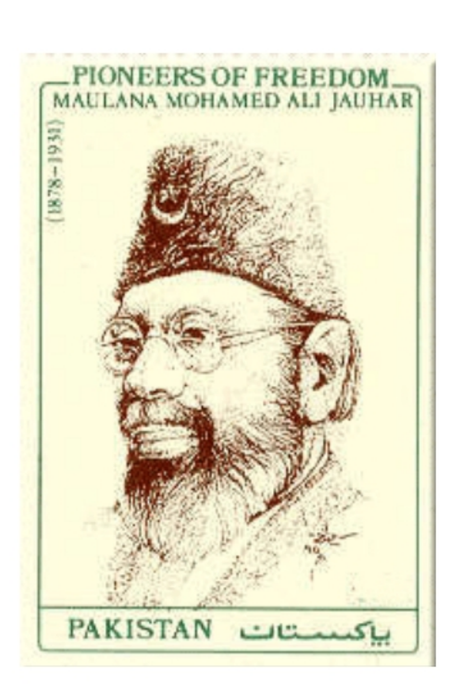
فحركة الخلافة التي بدأت بداية عشرينات القرن الماضي كان لها صدى كبير في المجتمع الهندي كافة، بل عملت كهمزة وصل للملمة شتات الهند شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، واندفعت عشرات الآلاف تضامناً مع هذه الحركة التي رفعت معنويات الثوار ضد الاحتلال البريطاني، ولا تذكر هذه الحركة إلا بذكر اسمين جليلين، علقوا بأذهان الأمة، والمعروفين في تاريخ الهند بـ"إخوة علي".. إنهما الأخوان الشقيقان محمد علي جوهر وشوكت علي، توليا قيادة الأمة في فترة حاسمة مشتعلة وأركعا جبروت الطغاة بهمة تزن الجبال.

الأسرة المقاومة

إخوة علي ينتمون إلى قبيلة فاتان المعروفة في التاريخ ببطولاتها ومغامراتها

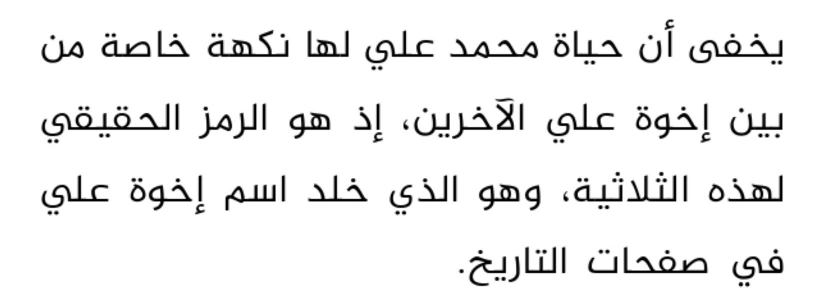
في ميادين الحرب، ولها جذور عميقة في الهند وباكستان وأفغانستان، وأمهم عابدة بيغم التي ربت هؤلاء الأبطال على قصص عظماء الأمة وأعلامها الأمجاد، ورغم وفاة والدهم مبكراً لم تزل الوالدة تسعى جاهدة بكل ما لديها من الممتلكات، وهي تنفق على أولادها في سبيل دراستهم، فأرسلتهم إلى جامعة عليكرة الإسلامية التي كانت هي الأولى والكبرى من بين الجامعات الهندية آنذاك، فاطلعوا على العلوم الحديثة والثقافة الغربية اطلاعاً واسعاً، ثم غادر محمد علي إلى لندن والتحق بجامعة أكسفورد ونال منها شهادة في التاريخ الحديث.



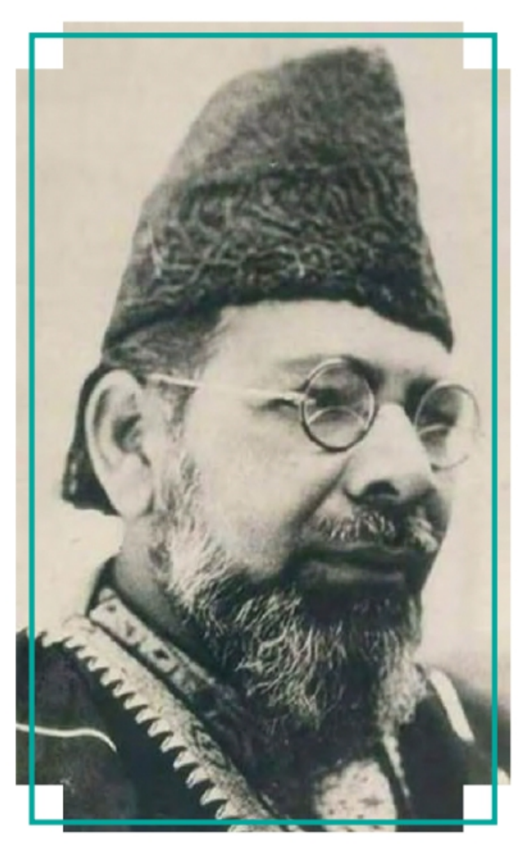


و"إخوة علي" هم: محمد علي وشوكت علي وذو الفقار علي، إلا أن الثالث منهم لم يحظ بصيت كبير ولم يكن له دور يذكر في السياسة، وامتاز منهم محمد علي بمواقفه الجريئة وخططته المحكمة وخطاباته الهزازة التي ظلت كابوساً يواجهه الاحتلال البريطاني حتى آخر أنفاسه.

ومن الجميل أن نذكر دور أمهم عابدة بيغم التي أصرت على تربية أبنائها حتى ولو كلفها ذلك حياتها، فباعت حُليها وألحقت أبناءها بالجامعات الهندية المشهورة آنذاك، وأرسلت محمد علي للدراسات الدينية بدار العلوم بديوبند، ولا



يخفى أن حياة محمد علي لها نكهة خاصة من بين إخوة علي الآخرين، إذ هو الرمز الحقيقي لهذه الثلاثية، وهو الذي خلد اسم إخوة علي في صفحات التاريخ.



محمد علي جوهر: حياة على متن المقاومة

عاش محمد علي جوهر حاملاً في قلبه كل المعاناة والمصاعب التي واجهت عائلته في الثورة الاستقلالية الكبرى التي حدثت عام ١٨٥٧م، وقتل من عائلته أكثر من مائتين أثناء مواجهة الاحتلال للثوار، إلى جانب ما علمته أمه الشجاعة عابدة بيغم، المحرك الحقيقي وراء تشكيل هذه الشخصية الخالدة.

خاض محمد علي مضمار السياسة مبكراً، وتلمس نبض الشعب الهندي الذي تململ من وطأة الاحتلال، وانتظر ميلاد زعيم يواسي جراحهم، وآمن محمد علي بأن الوطن المهيب لا يصنع من الخضوع والخنوع بل يبنى على معنويات سامية، وأحلام أبية على الاستسلام عصية على الترويض.

في أولى مراحل حياته تماشى مع حزب كونجرس الذي ضم ملايين الهنود، لكن في العشرينات بعد أن لاحظ تغيرات جذرية في مواقف كونجرس وانحياز لمصالح الهندوس، فارقه وودعه وداع البطل، فمن أول تجاربه السياسية أنه اشترك في المؤتمر الذي أقيم لانطلاق رابطة المسلمين لعموم الهند عام ١٩٠٦م وقدم في ذلك المؤتمر كتابه الموسوم بـ"الكتاب الأخضر" الذي يوضح منهجيته ومسار فكره واتجاهاته السياسية.



وعندما أوشكت الخلافة العثمانية على الانهيار وشاخت وانمحت آثار قوتها من العالم الإسلامي، وأقبلت الإمبراطوريات الكبرى تتقاسم أجزاءها تحت خطط ومشروعات مشؤومة، نهضت الهند بشرقها وغربها تدين هذه الهجمات الضروس، وتستنكر فعاليات بريطانيا وحاشيتها.

غادر إلى لندن كل من محمد علي وسليمان الندوي للتفاوض مع بريطانيا وطلبوا إقامة الخلافة لكن الطلب رفض، فبعد عودتهم إلى الهند أعلنت انطلاق حركة الخلافة في مومباي عام ١٩٢١م ليسجل خارج العالم الإسلامي ميلاد موعد جديد، ومضى فضيلته يجوب دنيا الهند بحثاً عن المتضامنين مع هذه الحركة، وحتى في كيرالا أقصى جنوب الهند اصطف الآلاف في هذه الحركة، وفتحوا مكاتب للخلافة، حتى حركت ساكن الاحتلال وهددت سيطرتهم حتى أن أحرق بعض نشطاء الخلافة مراكز جنود الاحتلال، فأهم شيء فعلته حركة الخلافة أنها رفعت معنويات الثوار، وغرست فيهم روح العزم وطوت المسافة نحو الاستقلال وعلمتهم بأن همم الرجال تهدم الجبال وأن القلب المصر سيهزم الجيش الذي لا يقهر.

فلخطابات محمد علي جوهر دور كبير في تحميس الشباب لا سيما أواسط الشرائح المثقفة، حيث أثارت خطاباته موجة احتجاج واستنكار من الاحتلال لا سيما بعد أن سلك أبو الكلام آزاد في هذا السلك السياسي الحاسم، فمما تدل على شدة وفائه للخلافة وللأمة أنه بعث طاقماً طبياً يضم خمسين متطوعاً إلى تركيا في الوقت الذي كانت تركيا تمر بظروف صعبة اقتصادياً واجتماعياً.

وتعد حادثة **هدم مسجد كانبور** النقطة الفارقة في حياته السياسية، إذ استغل الاحتلال هذه الفرصة لتفريق الشعب وإثارة موجة طائفية بينهم، حتى راح من المسلمين عدة ضحايا جراء القمع والعنف الذي مارسه الاحتلال، فاحتجاجاً على هذه الممارسات القمعية، أقام كل من محمد علي وشبلي نعماني وسليمان ندوي احتجاجاً شديداً ضد مواقف الاحتلال المتعصبة.

وكان لفضيلته ملكة قوية في إبداء الآراء وفي توضيحها حتى دبج سلسلة من المقالات التي تنتقد الإمبراطورية الإنجليزية التي تتربص بالخلافة وبالأمة، فلم يمضِ طويلاً حتى أصدر الاحتلال قراراً باعتقال وزجه في السجون، وفي أيام سجنه انتُخب رئيساً لرابطة المسلمين لتشهد الهند بزوغ سياسي محنك وفي.

وكان دبلوماسياً ماهراً، وفي عام ١٩٢٦ م حين دب الخلاف بين الشريف حسين وحكومة السعودية استدعاه ملك السعودية ضمن ممثلي الخلافة، وفي عام **١٩٣٠**م مثل مسلمي الهند في مؤتمر الطاولة المستديرة، فسافر إلى الهند غير آبه بصحته وحالته المتعبة، ويحكي عن تلك اللحظات قائد الملة محمد إسماعيل صاحب مؤسس رابطة المسلمين في الهند المستقلة في كتابه "ذكرياتي":

"رأيت الأخ محمد علي في ميناء ممباي، يريد المغادرة إلى لندن، وقد أضناه

العمر وأتعبه السفر، وعيناه تكاد لا تفتح، لكن رأينا قامة تمشي، فلما سألنا عنه وطلبنا منه الرجوع أصر وقال **"على قدر ما أفضل حياتي أفضل وطني هذا"،** ثم ركب السفينة وكأنه غادر حتى لا يعود إلى الهند المستعبدة". عاش مدافعاً عن الأمة ولم يتاجر بقضاياها ولم يرتزق، ولم يسمح لأحد أن يغل من حقها أو يغتالها.

ومن مقولاته الشهيرة التي هزت كيان الإمبراطورية: **"أنا لا أريد العودة إلى وطن مستعبد، بل سأموت في أي وطن ذاق حلاوة الحرية".**

رحيله

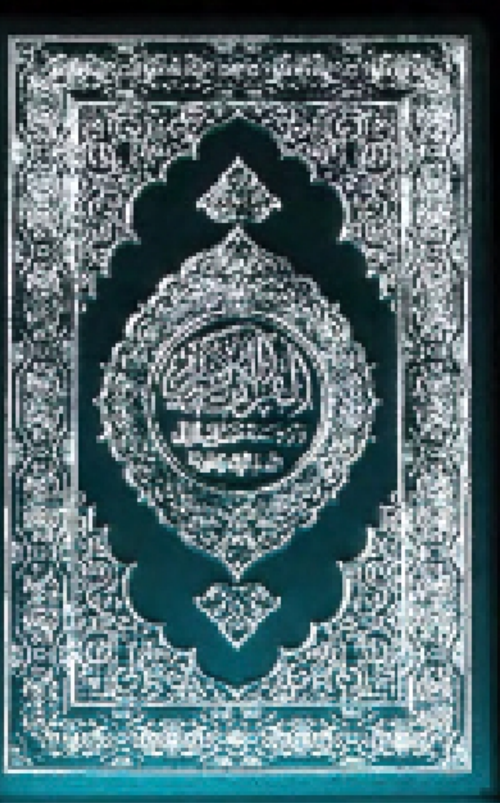
وكان مريض السكر، عانى في حياته منه لزمن طويل، ومات عام **١٩٣١** م في لندن، وهو القائل "إما وطن محرر أو مكان لأقبر"، ودفن بأكناف المسجد الأقصى ولم يرجع إلى الهند كما أقسم فأبر، وعنه قال المؤرخ المستشرق اتش جي ويلس: "له قلب نابليون، وقلم ميكالا، ولسان بيرك".

وزوجته أمجد بيغم لا بد من ذكر سيرتها العطرة، وقفت بكل قلبها وروحها وراء زوجها البطل، وكانت تشترك في النشاطات السياسية، حتى اشتركت كمندوب ولاية أتار برديش في مؤتمرات كونجرس، وعاشت على خطى أم زوجها عابدة بيغم أم الأبطال، وكان لهما الدور الكبير في تنشيط الفعاليات الاستقلالية وتبليغ رسالة المؤتمرات التي تنعقد من أجل الحرية بين النساء، وكانت هي الظل الظليل والوزيرة الناصرة لزوجها الشجاع أينما حل وارتحل، اشتركت في جنازة زوجها بلندن وسافرت إلى فلسطين بعد جهد وتعب لمراسم دفنه بأكناف المسجد الأقصى.

إنها يا سـادة سـيرة العظماء الذين عاشـوا في الأرض أعلاماً وماتوا بهـدوء كراماً، وإن لقصـص العظماء بقية.

وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا

سورة الفرقان الآية (٥٢)





أ.د. رشيد كهوس

وهذه الملامح التي قدمها الكاتبان الأمريكي والإسباني حول المنهاج النبوي في التعامل مع الوباء، تؤكد سبق الإسلام إلى هذه الإجراءات الطبية الصحية، كما تؤكد اهتمام الإسلام بالعلم، وعنايته بالعقل العلمي، وحثه على العمل بمقتضى السنن الإلهية التي أقام الله عليها نظام الكون والحياة البشرية، ودعوته إلى اتخاذ الأسباب التي تحفظ للناس صحتهم وحياتهم وسلامة مجتمعاتهم واستقرارها وأمنها.

يعتبر الحجر الصحي من أهم الإجراءات الوقائية للحد من انتشار العدوى في هذه الفترة التي يواجه فيها العالم كله "فيروس كورونا".

وقد بيّن النبي ﷺ طريقة تطبيقه بالبيان الواضح والمنهاج اللاحب، فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ : **«إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»**[1]. وقال ﷺ أيضا: **« لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»**[2].

يَحكِي الشَّرِيدُ بنُ سُوَيْدٍ الثَّقَفِيُّ أنَّه «كان في وَفْدِ ثَقِيفٍ» وهي قَبِيلَةٌ مشهورةٌ «رَجُلٌ مَجذُوم»، أي: مُصابٌ بِمَرَضِ الجُذَامِ، وهو مَرَضٌ مُعْدٍ، وأراد هذا المجذومُ أن يأتِيَ النبيَّ ﷺ م لِيُبايِعَه على الإسلام والجِهاد، **«فأرسَلَ إليه النبيُّ ﷺ: إنَّا قد بَايَعْناك»**[3]، أي: بالقولِ من غيرِ أخْذِ اليَدِ في العَهْدِ، **«فارْجِعْ»**.

قال النبي ﷺ: **«ليس مِن رَجُلٍ يَقَعَ الطاعونُ فيَمكُثُ في بَيتِه صابِرًا مُحتَسِبًا يَعلَمُ أنَّه لا يُصيبُه إلَّا ما كَتَبَ اللهُ له إلَّا كان له مِثلُ أجْرِ الشَّهيدِ»**[4]. وفي رواية: **(فيَمكُثُ في بَلَدِه صابِرًا)**[5].

قال الإمام ابن حجر في الفتح: "اقتضى منطوقه أن من اتصف بالصفات المذكورة يحصل له أجر الشهيد وإن لم يمت"اهـ. وبمعنى آخر فمن لزم بيته وقت نزول الوباء يحصل له أجر الشهيد وإن لم يمت.

فكل هذه الأحاديث تبين لنا المنهاج النبوي في التعامل مع الوباء،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ح٥٣٩٧. صحيح مسلم، كتاب السلام، بَابُ الطَّاعُونِ وَالطِّيَرَةِ وَالْكَهَانَةِ وَنَحْوِهَا، ح٢٢١٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب لا هامة، ح٥٤٣٧. صحيح مسلم، كتاب السلام، ح٢٢٢١.

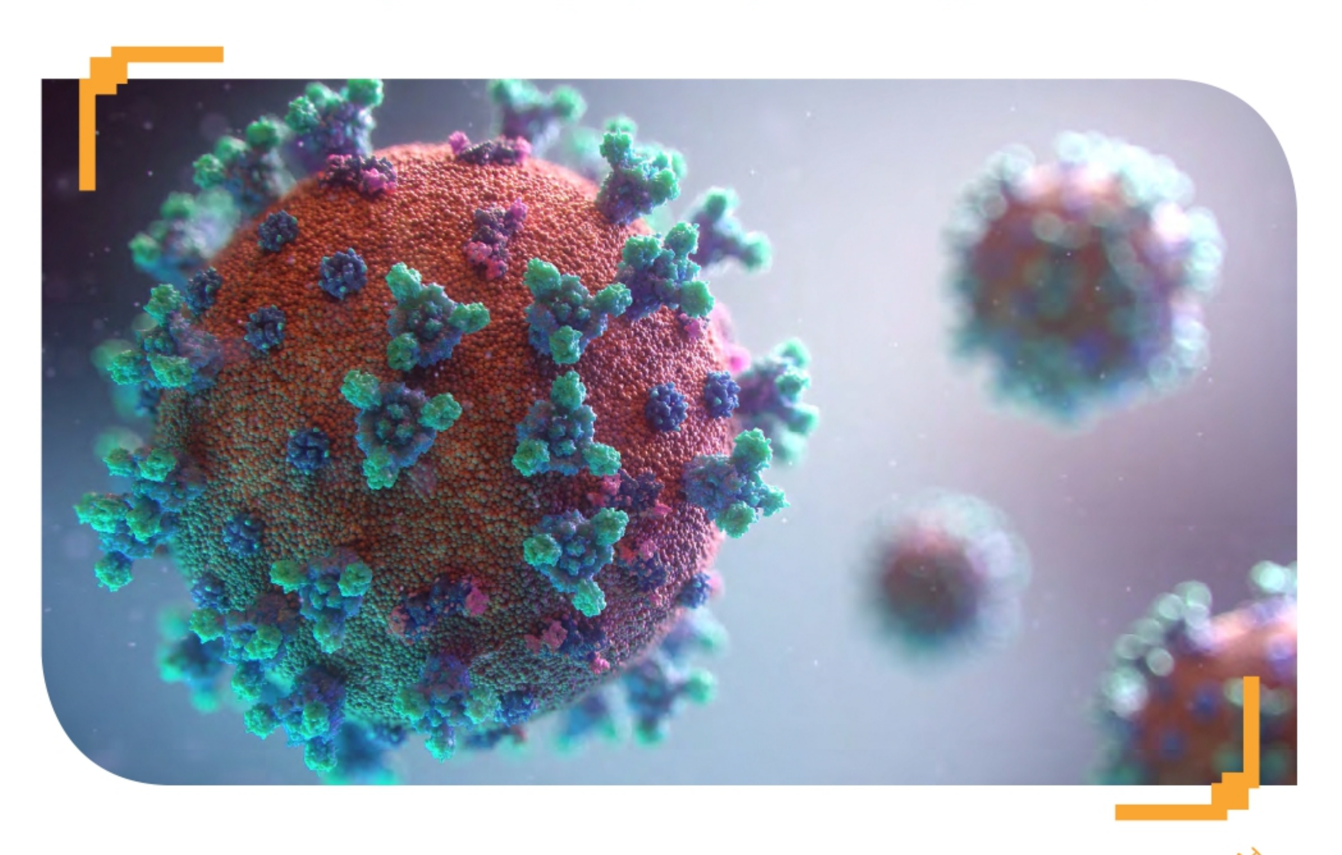
(٣) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب اجتناب المجذوم ونحوه، ح٢٢٣١.

(٤) مسند أحمد بن حنبل، ٤٣/٢٣٥.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب أجر الصابر في الطاعون، ح٥٤٠٢.

ومواجهة الأقدار الإلهية (الأمراض، الوباء، البلاء...) بأقدار إلهية أخرى (اتخاذ الأسباب)، وهذه الأحاديث الشريفة تنطبق على واقعنا هذا، في ظل انتشار "وباء كورونا" في سائر بقاع العالم.

وقد بيَّن النبي ﷺ في هذه الأحاديث، طريقة الحجر الصحي ؛ فمنع الناس من الدخول إلى البلدة المصابة بالطاعون، ومنع كذلك أهل تلك البلدة من الخروج منها، كما دعا إلى عدم الخروج من البيوت حتى لا يتفشى الوباء فتنتقل العدوى بين الناس.



ولهذا قال حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله في إحيائه: "(من) اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوها مغرورا"اهـ.

أي على الإنسان ألا يستسلم للقدر، بل يواجه القدر بقدر آخر، ذلك بأن المسببات مرتبطة بأسبابها شرعا وقدرا، لذلك فطلبها من غير أسبابها مذموم.

ومـن ثـم فـإن إنـكار سـنن الله في الأسـباب يـؤدي إلـى إبطـال حقائـق العلـوم وحقائـق علـوم الطـب، وهـذا مذمـوم في ديننـا الحنيـف.

قـال ابـن الخطيـب: "إنـه غيـر خفـي على مـن نظـر في هـذا الأمـر أن مـن يخالـط المصاب بهـذا المـرض يهلك ويسـلم مـن لا يخالطـه، كذلـك فـإن المـرض يقـع في الـدار أو المحلـة مـن ثـوب أو آنيـة فالقـرط يتلـف مـن علقـه بأذنـه ويبيـد البيـت بأسـره، ومـن البيـت ينتقـل المـرض إلـى المباشـرين، ثـم إلـى جيرانهـم وأقاربهـم وزائريهـم حتـى يتسـع الخـرق، وأمـا مـدن السـواحل فلا تسـلم أيضـا أن جاءهـا المـرض عبـر البحـر عـن طريـق وافد مـن مدينة شـاع عنهـا خبـر الوباء"اهــ.

وهـذا مسـتنبط مـن الأحاديـث النبويـة السـابقة التـي تأمـر بالأخـذ بالسـنن الإلهيـة في الأسـباب مـن خـلال الحجـر الصحـي على المصابيـن بالوبـاء، مـع عزلهـم عـن غيرهـم، وعـزل المـكان المصـاب (بـؤرة انتشـار الوبـاء)، ومراقبـة القادميـن مـن أماكـن انتشـار الوبـاء...



هذا وقد نشـرت مجلـة نيوزويك الأمريكية، مقـالا حـول تعاليم نـبي الإسـلام محمد ﷺ، حول النظافـة الشـخصية وتوجيهاتـه إذا حـل الوبـاء ببلـد ما، أي (الحجـر الصحي).

وكتـب أسـتاذ قسـم الاجتمـاع بجامعـة رايـس كريـج كونسـيدين مقـالا بعنوان: "هـل يمكـن لقـوة الصلاة وحدهـا إيقاف وبـاء مثـل كورونا؟ حتـى الرسـول محمد كان لـه رأي آخـر" .أكـد فيـه أن نبـي الإسـلام محمد ﷺ هـو أول من نصـح بالحجر الصحـي والنظافـة الشـخصية في حـالات انتشـار الوباء.

وأثـار كونسـيدين سـؤالًا حـاول الإجابـة عنـه قائـلًا: «هـل تعلمـون مـن الـذي

أوصي بالتـزام النظافـة، والحجـر الصحـي الجديـد أثنـاء تفشـي الأوبئـة؟ فأجـاب قائـلًا: نبـي الإسـلام مُحمـد، قبـل ١٤٠٠ عـام».

ورأى الكاتـب إنَّـه «على الرغـم مـن أنَّ نبـي الإسـلام ليس بأي حـالٍ من الأحوال خبيـرًا «تقليديًـا» في المسـائل المُتعلقـة بالأمـراض الفتّاكـة؛ إلَّا أنَّـه كان لديـة نصيحـة جيـدة؛ لمنـع ومُكافحـة تطـور الأوبئـة مثـل فيـروس كورونـا الجديد».

واستشـهد الكاتـب بحديـث أُسَـامَةَ بْـنِ زَيْـدٍ عـنِ النَّبِـيِّ قَالَ: **«إِذَا سـمِعْتُمْ الطَّاعُـونَ بِـأَرْضٍ، فَـلَا تَدْخُلُوهَـا، وَإِذَا وقَعَ بِـأَرْضٍ، وَأَنْتُـمْ فِيهَا، فَـلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا»** [رواه الشيخان].

وأشـار الكاتـب إلـى أنَّ النبـي قـد أوصـي بعـزل المُصابيـن بالأمـراض المُعديـة عـن الأصحـاء. كمـا حث الرسـول ﷺ، البشـر على الالتزام بعـادات يوميـة للنظافة، تسـهم في حمايتهـم مـن العـدوى.

ثـم ذكـر مجموعة من الأحاديث النبوية الشـريفة، ودعا إلـى التأمل فيها:

- **«الطَّهُورُ شَـطْرُ الْإِيمَانِ»** [صحيح مسـلم].

- **«إِذَا اسْـتَيْقَظَ أَحَدُكُـمْ مِـنْ نَوْمِـهِ، فَـلَا يَغْمِـسْ يَـدَهُ فِي الْإِنَـاءِ حَتَّـى يَغْسِـلَهَا ثَلَاثًـا، فَإِنَّـهُ لَا يَـدْرِي أَيْـنَ بَاتَـتْ يَدُهُ»**[متفق عليـه].

- **«بركـة الطعـام الوضـوء قبلـه، والوضـوء بعـده»** [سـنن أبـي داود]. فليـس المقصـود بالوضـوء فيـه : المعنـى الشـرعي المعـروف للوضـوء ؛ وإنمـا المـراد بـه غسـل اليديـن، قبـل الأكل.

ويسترسـل الكاتـب الأمريكـي في قولـه مُتسـائلًا: «في حـال مـرض شـخص مـا فمـا النصيحـة التـي سيُسـديها النبـي مُحمـد إلى البشـر الذين يتكبـدون الألم؟»،

فأجاب الكاتب إنَّه: «بالفعل سيُشجعهم -بالفعل على السعي للحصول على العلاج الطبي والأدوية»، واستشهد بالحديث النبوي الشريف عن أسامة بن شريك- رضي الله عنه- قال: قَالَتْ الأَعْرَابُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلا نَتَدَاوَى ؟ قَالَ: «نَعَمْ، يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، إِلا دَاءً وَاحِدًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُوَ؟ قَالَ: الْهَرِمُ» [سنن ابن ماجه].

وقال الكاتب الأمريكي إنَّ نبي الإسلام كان حكيما في المُوازنة ما بين الإيمان والعقل. فخلال الأسابيع الأخيرة، ظن بعضهم أنَّ الصَّلاة وحدها قادرة على حمايتنا من فيروس كورونا، وليس الالتزام بالقواعد الأساسية للتباعد الاجتماعي، والعزل المنزلي.



وفي ختام مقاله حثَّ (كونسيدين) على تأمل العبرة من القصة التي رواها الترمذي في سننه أنَّه ذات يوم جاء أعربي يستشير النبي في أمر ناقته **«قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ قَالَ لَه:** «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّل». وهي دعوة إلى الموازنة بين التوكل والأخذ بالأسباب.

وقال الكاتب إنَّه على الرغم من أنَّ نبي الإسلام أوصى بأنَّ الدين دستور

جامع لحياة البشرية؛ إلَّا أنَّه حثَّ أيضًا على اتباع الأسباب الاحترازية اللازمة لضمان استقرار الجميع وسلامتهم.اهـ.

كما نشر موقع صحيفة "ABC" الإسبانية تقريرا حول (نصائح النبي محمد المذهلة) في مواجهة الأوبئة، التي تنطبق تماما على الإجراءات الوقائية والطبية التي تنصح بها الجهات الرسمية والطبية الناس اليوم للحد من انتشار فيروس كورونا المستجد (كوفيد ١٩).

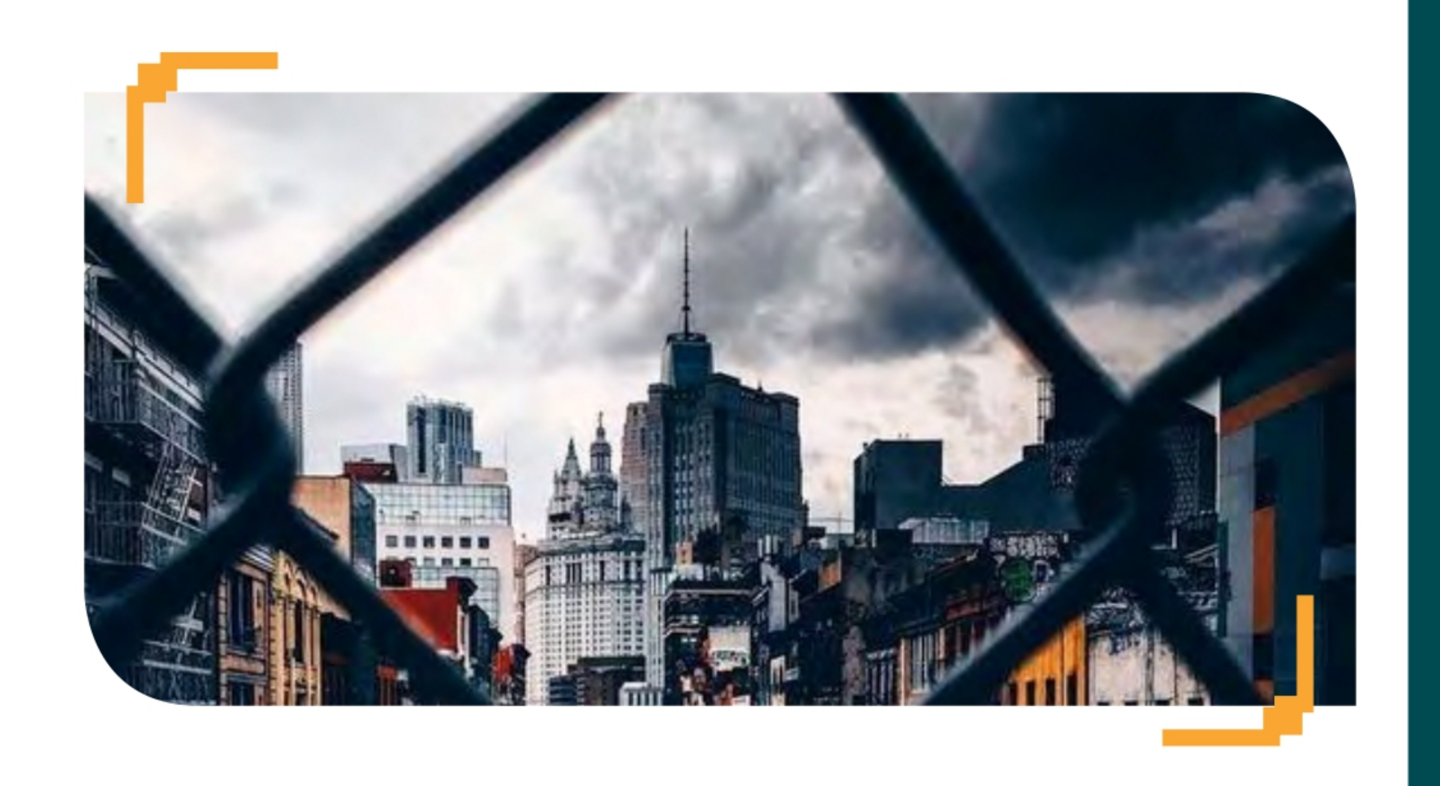
ABC

واعتبر الكاتب الإسباني (خوسيه مانويل نيفز) أنه من المذهل أن النبي محمد الذي عاش قبل أكثر من ١٤٠٠ عام، والذي كان أميا ولم يتلق أي تدريب علمي -بحسبه-، "كان يعرف بالفعل، خطوة بخطوة، ما يجب فعله أثناء الوباء".

واستشهد "نيفز" بتقرير نيوزويك، واقتبس منه ترجمة عدد من التوجيهات التي وردت في أحاديث نبوية، شريفة، أهمها حديث الطاعون، وعدم الدخول أو الخروج من البلد الذي أصيب به.

وأشار إلى ما ذهب إليه الكاتب الأمريكي (كريغ كونسيدين)، وهو أن "النبي محمد عرف قيمة الموازنة بين العقل والإيمان، والأخذ بالأسباب مع الصلاة والدعاء".

وهذه الملامح التي قدمها الكاتبان الأمريكي والإسباني حول المنهاج النبوي في التعامل مع الوباء، تؤكد سبق الإسلام إلى هذه الإجراءات الطبية الصحية، كما تؤكد اهتمام الإسلام بالعلم، وعنايته بالعقل العلمي، وحثه على العمل بمقتضى السنن الإلهية التي أقام الله عليها نظام الكون والحياة البشرية، ودعوته إلى اتخاذ الأسباب التي تحفظ للناس صحتهم وحياتهم وسلامة مجتمعاتهم واستقرارها وأمنها.



وقـد سـار على الهـدى النبـوي الصحابـة رضـي الله عنهـم، لذلـك لما حـل الطاعـون بالشـام رجـع الفـاروق عمـر رضـي الله عنـه بالنـاس ولـم يدخلهـا، فقَـالَ لـه أَبُـو عُبَيْـدَةَ بْـنُ الْجَـرَّاحِ رضـي الله عنـه: **"أَفِـرَارًا مِـنْ قَـدَرِ اللَّهِ! فَقَـالَ عُمَـرُ: "لَـوْ غَيْـرُكَ قَالَهَـا يَـا أَبَـا عُبَيْـدَةَ ! نَعَـمْ نَفِـرُّ مِـنْ قَـدَرِ اللَّهِ إِلَـى قَـدَرِ اللَّهِ"**[1]. وهكـذا كان الفـاروق □ فقيهـا في السـنن الإلهية، وأخذ بسـنن الأسـباب للحفـاظ على النـاس مـن إصابتهـم بالطاعـون، وهـذه نتيجـة وعيـه السـنني، وهـذا الفقـه العمـري نحـن في حاجة إليـه اليوم، مع انتشـار وباء كورونـا (كوفيد ١٩) في العالـم، فنحـن في حاجـة إلـى المباعـدة الاجتماعيـة، ولـزوم البيـوت، منعـا مـن انتشـار العـدوى بيـن النـاس، وحفاظـا على صحتهـم وأرواحهـم، إذ الأمـن الصحـي مقصـد عظيـم مـن مقاصـد الرسـالة الخاتمـة.

واتخـاذ الإجـراءات اللازمـة، والأخـذ بالأسـباب الصحيـة والوقائيـة مـن الوبـاء، لا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ح٥٣٩٧.

ينافي الرضا بالقضاء والقدر، ولا التوكل على الله، بل هو من صميم الدين ومن صميم الرضا بالقدر.

ذلك بأن القول بالتنافي بين التوكل على الله تعالى والأخذ بالأسباب جهل بالدين، والتوازن بين مقامي التوكل والأخذ بالأسباب هو الدين.

ومسك الختام:

إن التعامل مع هذا الوباء الذي انتشر في العالم كله (كورونا)، لا يكون بالسخرية واللامبالاة، ولا بالذعر والخوف والهلع.. وإنما:

- بإصلاح العلاقة مع الله، والتوبة إليه، والدعاء والتذلل بين يديه.. [إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم]. (الرعد: ١١).

- واتخاذ الأسباب الاحترازية اللازمة، واتباع الإجراءات الطبية الوقائية، والالتزام بمبادئ النظافة والحجر الصحي والعزل الاجتماعي، **(نَفِر من قَدَر الله إلى قَدر الله).**

- ثم بعد ذلك بالاطمئنان واليقين في الله تعالى، وأن لا شيء يحصل في الكون بدون علمه وحكمته ومشيئته الأزلية. وأن الأمل ينبثق من ثنايا الألم، وأن المنح تخرج من طي المحن، وأن اليسر يأتي على مطايا العسر، وأن العطايا تجيء على أقدام البلايا، وأن النعم تتنكر في أثواب النقم. (فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا).(إن الله بالغ أمره).

اللهم اصرف عنّا الوباء، وقِنا شر الداء، ونجنا من الطعن والطاعون والبلاء، بلطفك يا لطيف إنك على كل شيء قدير.

سورة المائدة

وهُوية الأمة الإسلامية



سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام
إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله
يحكم ما يريد ① يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله
ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت
الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا
ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن
تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم
والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ②

د. عطية عدلان

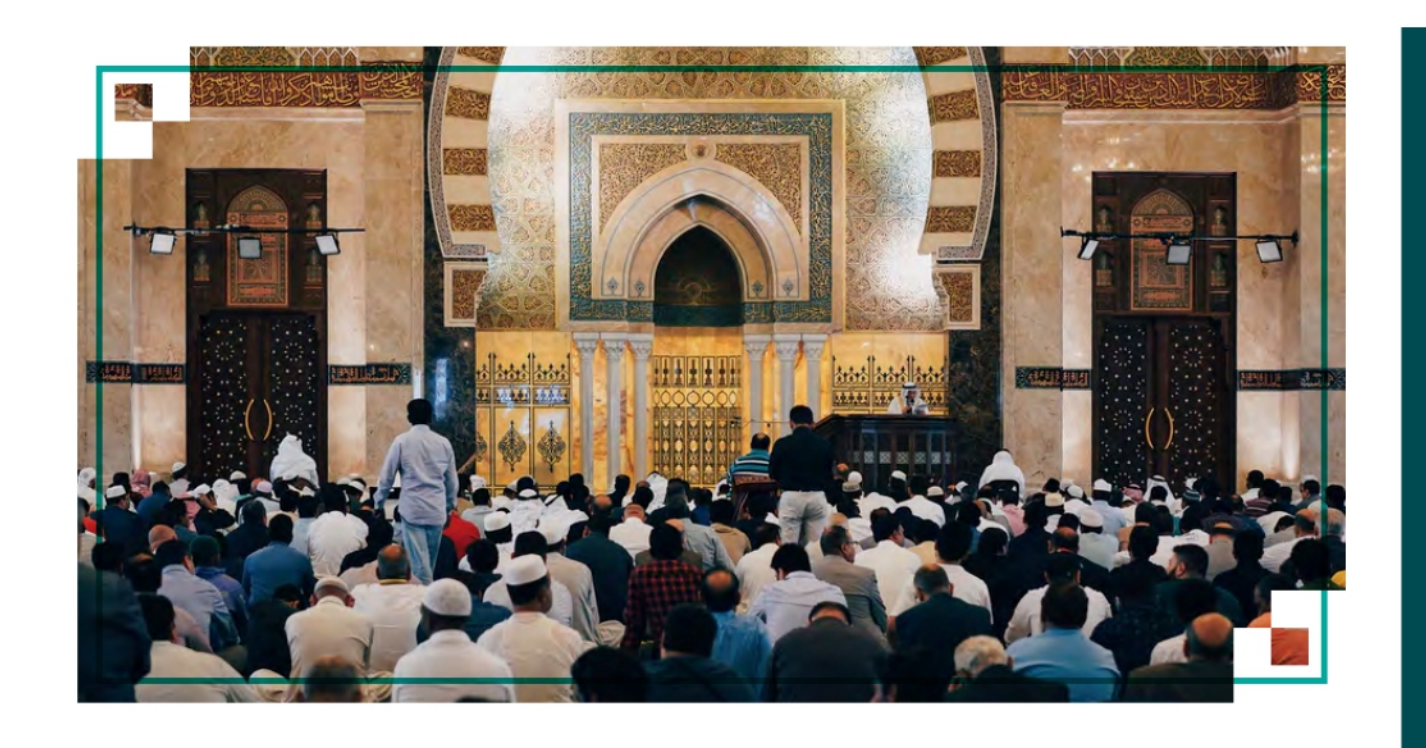
الآن ستبدأ الانطلاقة الكبرى للأمة الإسلامية، اليوم تضع الأمة قدمها على أول درجة في سلم العالمية، عالمية الرسالة والدعوة والتمكين؛ فلا بد من الاطمئنان على سلامة القاعدة ومتانة البناء.

الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد ..

لكل سورة في كتاب الله تعالى موضوع واحد، جامع لما تفرق فيها من موضوعات، حتى السور الطوال كالبقرة والنساء والمائدة، لكل سورة منها موضوع تدور في فلكه كل موضوعات السورة على تنوعها واختلافها، فما هو موضوع سورة المائدة الذي منه انبثقت موضوعاتها العديدة والمتشعبة؟

لا بد أولاً أن نستصحب الظروف والملابسات التاريخية التي نزلت فيها هذه السورة، فهي من السور المدنية باتفاق، وقد بدأ نزولها في العام السادس من الهجرة وظلت مفتوحة حتى نزل منها في حجة الوداع قول الله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً) (المائدة ٣)، والعام السادس من الهجرة عام استقرار نسبيّ؛ حيث رد الله الأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وأطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك التصريح السياسي العسكري المشخص للواقع: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا)، وحيث انتهى إلى حد بعيد خطر اليهود داخل المدينة بسقوط بني قريظة آخر معاقلهم داخل المدينة، ولم يتبقَ منهم إلا خيبر وهي خارج المدينة.

فالظرف إذاً ملائم للالتفات إلى المجتمع المسلم من داخله؛ واستكمال بنائه وتمتينه وشدّ أركانه، وقد كان المجتمع المسلم قوياً بالدعوة وبوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم وباستمرار نزول الوحي، لكنه كان مجتمعاً جديداً وسط محيط من العداوات، وكان سريع النمو تنضاف إليه كل يوم شرائح جديدة تغير باستمرار من طبيعته وصورته؛ الأمر الذي يستدعي تكرار عملية إعادة البناء، وتدارك ما يحدث من خلل؛ لكونه المجتمع الذي سيظل على مدى التاريخ النموذج الذي يحتذى.



والسورة الكريمة إن تأملتها وتفحصت موضوعاتها تبين لك أنّها معنية بهوية المجتمع المسلم وصبغته؛ إذْ من الضروريّ أن يبقى المجتمع المسلم - رغم انفتاحه وتفاعله مع الآخرين - مميزاً بهويته الإسلامية وصبغته الربانية، صحيح أنّ الهوية كانت ظاهرة وأنّ الصيغة كانت بارزة وأنّ المجتمع المسلم كان مميزاً عن الجاهلية وعن سائر المجتمعات بهويته الإسلامية وصبغته الربانية، لكن بقيت بعض الزوايا في الصورة العامة تحتاج إلى وضوح وبروز، وبقيت بعد الخطوط في الخريطة المجتمعية والثقافية والفكرية والنفسية تحتاج إلى مرور القلم عليه لتزداد بروزاً ووضوحاً وتحديداً، وإلى جانب ذلك بعض التداخل في الأفكار بسبب البيئة التي تعددت فيها هويات رعايا الدولة الإسلامية الشابة.

› الآن ستبدأ الانطلاقة الكبرى للأمة الإسلامية، اليوم تضع الأمة قدمها على أول درجة في سلم العالمية، عالمية الرسالة والدعوة والتمكين؛ فلا بد من الاطمئنان على سلامة القاعدة ومتانة البناء، ومن هنا جاءت الحاجة للتأكيد على صبغة المجتمع وهويته، ولا سيما مع كثرة المؤثرات المحيطة، فاليهود رغم جلاء معظمهم لا يزال أثرهم باقياً، والنصارى رغم

قلة التماس حتى ذاك الوقت إلا أنّ دينهم له شهرة وذيوع لكونه دين الامبراطورية العظمى، إلى جانب موروثات الجاهلية العربية من حولهم.

ومن اللافت للنظر أنّ السورة تبدأ بهذا النداء المميز (يا أيها الذين آمنوا) ولم يبدأ بهذا النداء في القرآن إلا سورة المائدة وسورة الحجرات، وكلتاهما تركز على صبغ المجتمع المسلم بالصبغة الإسلامية الخاصة، غير أنّ ريشة الحجرات أكثر دقة، وريشة المائدة أوسع تغطية، فالحجرات تضع اللمسات الأخيرة بالتأكيد على أخلاقيات سامية ونبذ ما يضادها مما لا يليق بالمسلمين، بينما المائدة تضع الألوان الرئيسية للصورة العامة للمجتمع المسلم، وتؤكد على الخطوط الكبيرة الفاصلة.

ولنبدأ بما بدأت به السورة الكريمة، فَلِأَنَّ الثقافات التي أحاطت بالمجتمع المسلم وتماست معه بشدة لا تعطي عناية كبيرة بالعهود والعقود والمواثيق؛ مما ترتب عليه النسيان والتبديل والعدوان والبغي، وبما أنَّ أصحاب الديانات الأقرب من الإسلام زماناً والأكثر خطراً عليه كانوا على هذا النحو الذي صورته سورة المائدة:

(وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)) (المائدة ١٢-١٤)

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) (المائدة ٧٠)؛ ما دام الوضع على هذا النحو الخطير فلابد من هذه البداية الباهرة للسورة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) (المائدة ١).

إنّ الوفاء بالعهود والعقود كافّة صبغة للمسلمين على مستوى الفرد والمجتمع والدولة، وما أكثر الآيات التي جاءت صارمة وحاسمة بصورة قطعت على المسلمين كل سبيل إلى التأويل، فإذا كانت آية المائدة موجزة مما يشعر بالقطع والحزم، فإن آيات أخرى في مواضع أخرى من كتاب الله أسهبت بما لا يدع لأحد فرصة للفرار من المعنى المطبق المحيط كقوله تعالى:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)) (النحل ٩١-٩٦).

والمجتمع المسلم متميز غاية التميز في مآكله ومشاربه وسمته وطهارته وعاداته وتقاليده، فالطهارة ركيزة من ركائزه وشعيرة من شعائره: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَامْسَحُوا

بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا ..) الآية (المائدة ٦)، ولا يسوغ للمجتمع المسلم أن يستوي مع غيره في شيوع القمار والميسر والخمر ومظاهر الجاهلية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة ٩)



كما لا يسوغ أن يقع خلط في المآكل تجعل المجتمع المسلم قريب الشبه من المجتمعات الجاهلية: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَما أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة ٣).

والصبغة الأبرز للأمة الإسلامية وللمجتمع هي سيادة الشريعة وحاكمية الكتاب والسنة، لذلك بسطت السورة الكريمة في بيان هذه الركيزة بما لم تبسطه في موضع آخر، فلا بد من بيان أنّه: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ

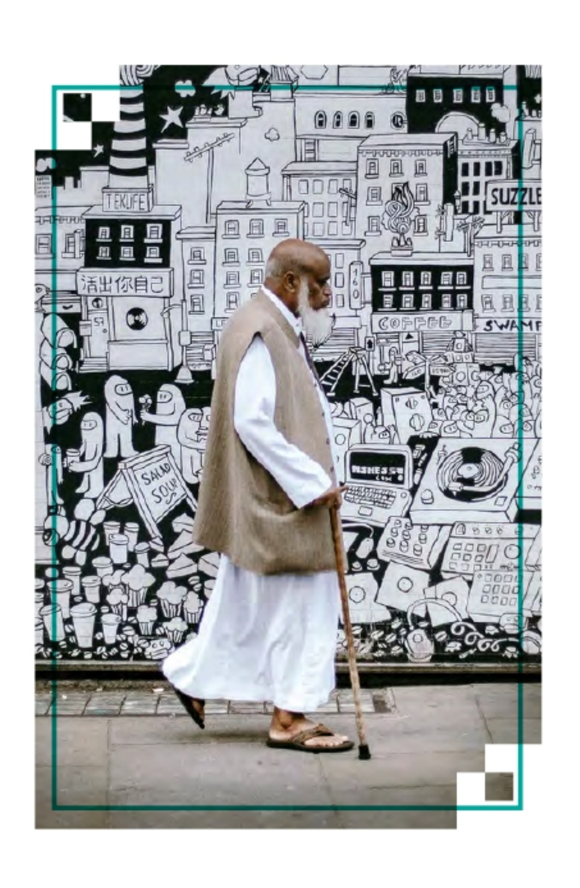
هُمُ الْكافِرُونَ) (المائدة ٤٤) (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (المائدة ٤٥) (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ) (المائدة ٤٧) (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ) (المائدة ٤٨) (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ) (المائدة ٤٩) (أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

(المائدة ٥٠).



ولكي تبقى هوية المجتمع المسلم وصبغته واضحة ومميزة فلابد من مواجهة المخاطر التي تهددها، أول هذه المخاطر هو تذبذب الولاء والبراء، فإنّ ضعف الولاء للمسلمين مع موالاة الكافرين يعد الجسر الذي تعبر عليه كل الملوثات التي تغير من طبيعة المجتمع المسلم وتطمس هويته، لذلك ركزت السورة تركيزا شديداً على هذه القضية، فكانت الأحكام الواضحة الحاسمة: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ) (المائدة ٥١) (إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ

راكِعُونَ) (المائدة ٥٥) (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِياءَ) (المائدة ٥٧).



أمّا الخطر الأكبر على هوية المجتمع المسلم وصبغة الأمة العامة فهو التشوش الفكري تجاه أهل الملل والنحل التي لها مساس بالمسلمين أو الذين يخالطون المسلمين، فما لم يعلم المسلمون الفرق بين عقيدتهم وعقيدة هؤلاء الذين يخالطونهم، وما لم يعلموا قبح هذه العقائد ومنافاتها للإسلام؛ فإنّهم حتماً سيقعون في الخلط والتساهل الذي يشوه الصبغة الإسلامية ويطمس الهوية، ومن هنا أسهبت السورة في التشنيع على أهل الكتاب في عقائدهم وأفعالهم، ومن ذلك تصريحها بكفرهم وبسبب هذا الكفر، من مثل: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) (المائدة ٧٢) (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) (المائدة ٧٣) (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) (المائدة ٧٨).

إنّنا بحاجة إلى إدراك هذه المعاني وإلى الانطلاق منها في طريق استعادة هوية الأمة الإسلامية، وفي استعادة التمكين لها، ولا ريب أنّ شرط التمكين الأول هو عودة الأمة لما كانت عليه، وفي مقدمة ذلك الهوية الإسلامية والصبغة الربانية، والله المستعان.

محمد عمارة ...

(٢-٤)

راهب الفكر وفارس الميدان



د. وصفي عاشور

في الحلقة الأولى تحدثنا عن قيمة الراحل الكبير د. محمد عمارة الفكرية والاجتهادية، وما يمثله رحيله من خسارة كبيرة للفكر الإسلامي وقضايا المسلمين، وتحدثنا عن نذْر والده له قبل ميلاده أن يجعله للعلم الديني، واستعرضنا المسيرة التعليمية له باختصار، وذكرنا مشايخه ومكتبة حازها فيها أربعة آلاف كتاب في وقت مبكر من حياته قرأها كلها، وطبيعة عمله الوظيفي الذي مكنه من إنجاز سلاسل الأعمال الكاملة، وتأثره بعدد من العمالقة منهم: العقاد والغزالي.

وفي هذه الحلقة نواصل الحديث عن فقيدنا الكبير، ومعالم مشروعه

معالم المشروع الفكري لعمارة

لقد أثمر الانقطاع الذي انقطعه محمد عمارة مشروعا فكريا مترامي الأطراف تمثل في أكثر من ٣٠٠ كتاب؛ فضلا عن آلاف المقالات والأبحاث والمداخل الموسوعية في الموسوعات والدوريات والمجلات والصحف والشبكة العنكبوتية؛ وهو الذي قال: "آثرت التفرغ للبحث والكتابة، وتركت الوظيفة الحكومية وزهدت في التطلع للمناصب منذ تخرجت في كلية دار العلوم، وفضلت أن أظل حراً مشتغلاً بالعلم، وأن أكون كالجالس على «الحصيرة»؛ لأن الجالس على الحصيرة لا يصيبه الأذى إذا ما وقع من عليها!".

وهذا الانقطاع والعكوف - الذي لم ينفك عن الواقع ولا الميدان يوما كما سنبين لاحقا - استطاع أن يقوم بما لا تقوم به مؤسسات ولا مراكز أبحاث، وهو ما قاله المستشار طارق البشري يوم تكريمه في مركز الإعلام العربي في ٢ من نوفمبر ٢٠١١م؛ حيث قال:

"الدكتور محمد عمارة ممكن تسميته بمؤسسة محمد عمارة وليس الدكتور عمارة؛ نظرا لأن ما قام به في مجال الفكر الإسلامي تعجز مؤسسة بأكملها عن القيام به".



معنى "المشروع الفكري":

وحتى تكون المصطلحات محررة وواضحة - وهو الذي كتب كتبا عن المصطلحات - فإن معنى" المشروع الفكري" قد سئل هو عنه: ما أهم ملامح هذا المشروع الفكري الذي تتحدث عنه باستمرار؟ فكانت إجابته: "أن نبرز حقيقة الإسلام ومعالمه: العقيدة والشريعة والمنظومة الفكرية، والإحياء الإسلامي للمجتمع، والهداية الإسلامية للإنسان، وعالمية الإسلام، وأيضًا فقه الواقع الذي نعيش فيه وإنزال هذه الأحكام الإسلامية على الواقع الذي نعيش فيه، والتصدي

للحرب المعلنة على الإسلام. باختصار: ما هو إسلامنا؟ ما هو الواقع الذي نحن بحاجة إلى فقهه وإلى أسلمته؟ وما التحديات التي تواجه هذا الإسلام؟ هذه هي معالم المشروع الفكري"، ونحاول أن نرصد لكل جانب من هذه الجوانب في المشروع ما يناسبه من مؤلفات د. عمارة على النحو الآتي:

أولا: بيان حقيقة فكرة الإسلام:

ومن خلال التأمل في عنوانات الكتب التي تعبر عن منجزه الفكري فإننا نلحظ اهتماما كبيرا وواسعا بـ "الفكرة الإسلامية" وعرضها وبيانها، وقد تجلى ذلك من خلال سلسلات كثيرة، منها: "سلسلة التنوير الإسلامي"، و"سلسلة هذا هو الإسلام"، وسلسلة: "رسائل الوعي الحضاري"، هذه سلسلات وفيها عناوين كثيرة، فضلا عن عنواناته الأخرى، مثل: الإسلام والشريعة الإسلامية، الإسلام وضرورة التغيير، إسلامية المعرفة ماذا تعنى، الإسلام والمستقبل، الإسلام في مواجهة التحديات، الإسلام والثورة، الإسلام بين التنوير والتزوير، الإسلام و الفنون الجميلة، الإسلام والأمن الاجتماعي، الإسلام في عيون غربية، الإسلام والحرب الدينية، الإسلام و حقوق الإنسان..ضرورات لا حقوق، الإسلام والعروبة، الإسلام والأقليات، الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، الإسلام وحقوق الإنسان، الإسلام والأخر، الإسلام والحرب الدينية، الإسلام والتعددية، الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الإصلاح بالإسلام، العطاء الحضاري للإسلام، المشروع الحضاري الإسلامي، السماحة الإسلامية... حقيقة الجهاد والقتال والإرهاب، الدين والحضارة، عوامل امتياز الإسلام، مقام العقل في الإسلام، معالم المنهج الإسلامي... كل هذا وغيره يعرض فيه مفكرنا العظيم رؤية الإسلام للقضايا التي يقرنها بالإسلام في عنوانات الكتب.

ثانيا: رصد الواقع وتلبية حاجاته:

أما من ناحية فقع الواقع فكانت عيناه دائمة الرصد لقضايا الواقع وحاجات المجتمع، ولم يغب يوما عن قضايا الواقع وما يموج به من أفكار، وما يطرحه من رؤى وقضايا وإشكالات، وقد كانت معاركه الفكرية مبنية على وعيه بالواقع

وتحدياته، ومن ذلك معركته مع الكنيسة، ومعركته مع التنصير، ومعركته مع الصهيونية، ومعركته مع المشروع الشيعي الإيراني، وغير ذلك، وقد أصدر في ذلك عدة كتب، منها: الغارة الجديدة على الإسلام، الفاتيكان والإسلام، فتنة التكفير، صيحة نذير من فتنة التكفير، تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة، استراتيجية التنصير فالعالم الإسلامي، الأقباط في مصر، في المسألة القبطية حقائق وأوهام، عروبة مصر وأقباطها، أكذوبة الاضطهاد الديني في مصر، الأقباط المتطرفون في مصر، الفتنة الطائفية... متى وكيف ولماذا؟.

› ومن استجاباته للواقع وتلبيته لحاجاته أنه تداعى لتأييد ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١م، وأصدر فيها كتابا بعنوان: ثورة ٢٥ يناير وكسر حاجز الخوف.

› **كما كان له اهتمام خاص بقضية فلسطين،** وكتب فيها أو مقال له بعنوان: "جهاد" نشر في صحيفة مصر الفتاة عام ١٩٤٨م، كما كان له كتب عنها، ومن ذلك: فلسطين والقدس، في فقه الصراع على القدس و فلسطين، القدس الشريف رمز الصراع وبوابة الانتصار، القدس.. أمانة عمر في انتظار صلاح الدين، القدس بين اليهودية و الإسلام.

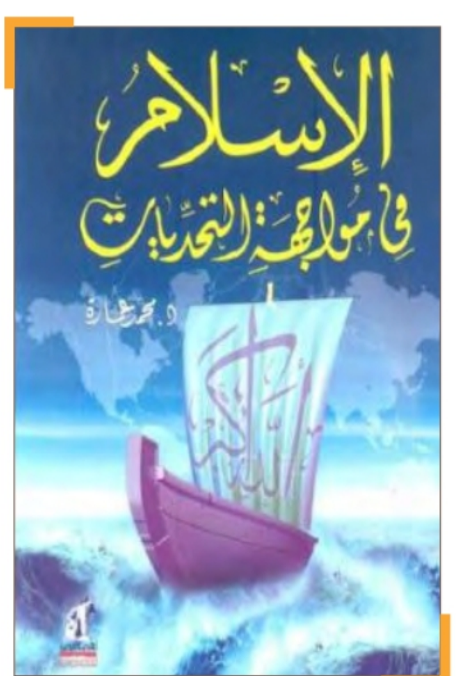


ثالثا: التصدي للتحديات التي تواجه الإسلام:

وهذا المحور هو منبثق عن السابق، فالوعي بالواقع يثمر إدراك التحديات

ومن ثم التصدي لها، وقد كان يتابع في حركة دائبة التحديات التي تواجه الإسلام، والمخاطر التي تهدده سواء من حقد الكنيسة الغربية والشرقية، وقد أسلفنا عناوين كتب في هذا، أو مؤامرات الصهيونية العالمية، أو ضلالات وجهالات العلمانيين والمتغربين، ومعاركه الفكرية التي خاضها في حياته ضد هذه الجهات جميعا شاهدة على رصده الحثيث للواقع المثمر وعيا بالتحديات والاستجابة لها.

وقد أصدر في ذلك عددا من الكتب منها: التفسير الماركسي للإسلام، الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديد الأمريكانى، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، مقالات الغلو الديني و الادينى، الإصلاح الديني في القرن العشرين، في فقة المواجهة بين الغرب والإسلام، الغارة الجديدة على الإسلام، العلمانية، سقوط الغلو العلماني، علمانية المدفع و الإنجيل، فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين، العلمانية بين الغرب والإسلام، نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين، مأزق المسيحية و العلمانية في أوروبا، تحرير المرأة بين الغرب والإسلام، الإسلام والغرب افتراءات لها تاريخ، الحضارات العالمية تدافع أم صراع.

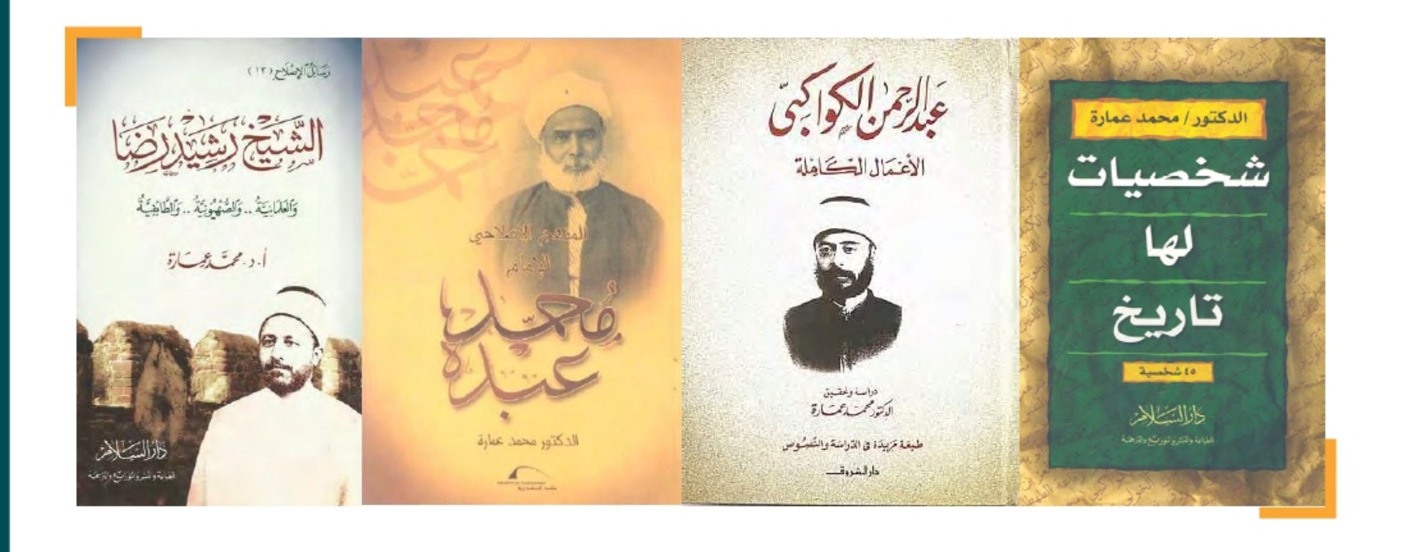




رابعا: الرد على الشبهات:

إذا كان المفكر صاحب المشروع يهتم ببيان الفكرة وإقامة الدليل عليها، ورصد الواقع والاستجابة لاحتياجاته، ويقف أمام التحديات التي تواجه الإسلام، فإنه مطالب بالقدر نفسه بالرد على الشبهات التي تثار حول الفكرة وحقيقتها وطبيعتها وأدلتها.

وقد أسهم مفكرنا العظيم د. محمد عمارة بنصيب وافر في الرد على الشبهات، وأصدر في ذلك عددا من الكتب، منها: حقائق الإسلام في مواجهة المشككين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام، رد الشبهات عن الإسلام، شبهات حول القران الكريم، شبهات حول الإسلام، حقائق وشبهات حول السنة النبوية، إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات.



خامسا: الكتابة عن الأعلام:

هذا المحور خارج عن إطار العناصر التي تكون المشروع الفكري، وإنما يستعرض تاريخ هؤلاء الأعلام، ومشروعاتهم الفكرية، ومواقفهم، ومكانتهم وعلمهم.

وقد كتب د. محمد عمارة عن كثير جدا من الأعلام قديما وحديثا، وأصدر في ذلك عددا من الكتب، منها: أعلام الفكر الإسلامي والحديث، عبد الرحمن الكواكبى،

عبد الرحمن الكواكبى... طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبد الرحمن الكواكبى - شهيد الحرية ومجدد الإسلام، الشيخ عبد الرحمن الكواكبى هل كان علمانيا؟، علي مبارك مؤرخ و مهندس العمران، الإمام محمد عبده.. مجدد الدنيا بتجديد الدين، جمال الدين الافغانى موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، جمال الدين الافغانى المفترى عليه، أبو حيان التوحيدي بين الزندقة والإبداع، الشيخ محمد الغزالي.. الموقع الفكري و المعارك الفكرية، قاسم أمين... تحرير المرأة والتمدن الإسلامي، معالم المشروع الحضاري في فكر الإمام الشهيد حسن البنا، الدكتور عبد الرازق السنهوري .. إسلامية الدولة والمدنية والقانون، رفاعة الطهطاوي - رائد التنوير في العصر الحديث، من أعلام الإحياء الإسلامي، شخصيات لها تاريخ، رفع الملام عن شيخ الإسلام ابن تيمية، عمر بن عبد العزيز .. ضمير الأمة وخامس الخلفاء الراشدين، ابن رشد بين الغرب والإسلام.



هذه الجوانب التي تشكل معالم المشروع الفكري للدكتور عمارة يحتاج كل معلم منها إلى دراسة مستقلة بل دراسات تبين منهجه فيها، وعطاءه الذي أعطاه، والجهد الذي بذله، واستمداد كل محور من هذه المحاور، وامتداداتها وآثارها في الفكر والواقع والحياة، وبيان المآخذ التي تؤخذ على كل جانب سواء أكانت هذه المآخذ نواقص تحتاج لتكميل، أم أخطاء تحتاج لتصحيح، أم غوامض تحتاج لتوضيح، وهو بشر ليس معصوما، ويؤخذ من كلامه ويرد عليه.

(في الحلقة الثالثة سيكون الحديث بإذن الله عن الأسرار العشرة لتميز مشروع د. عمارة الفكري، وفي الحلقة الرابعة والأخيرة حول معالم فروسيته في الميادين ونورد معها مصادر الدراسة).

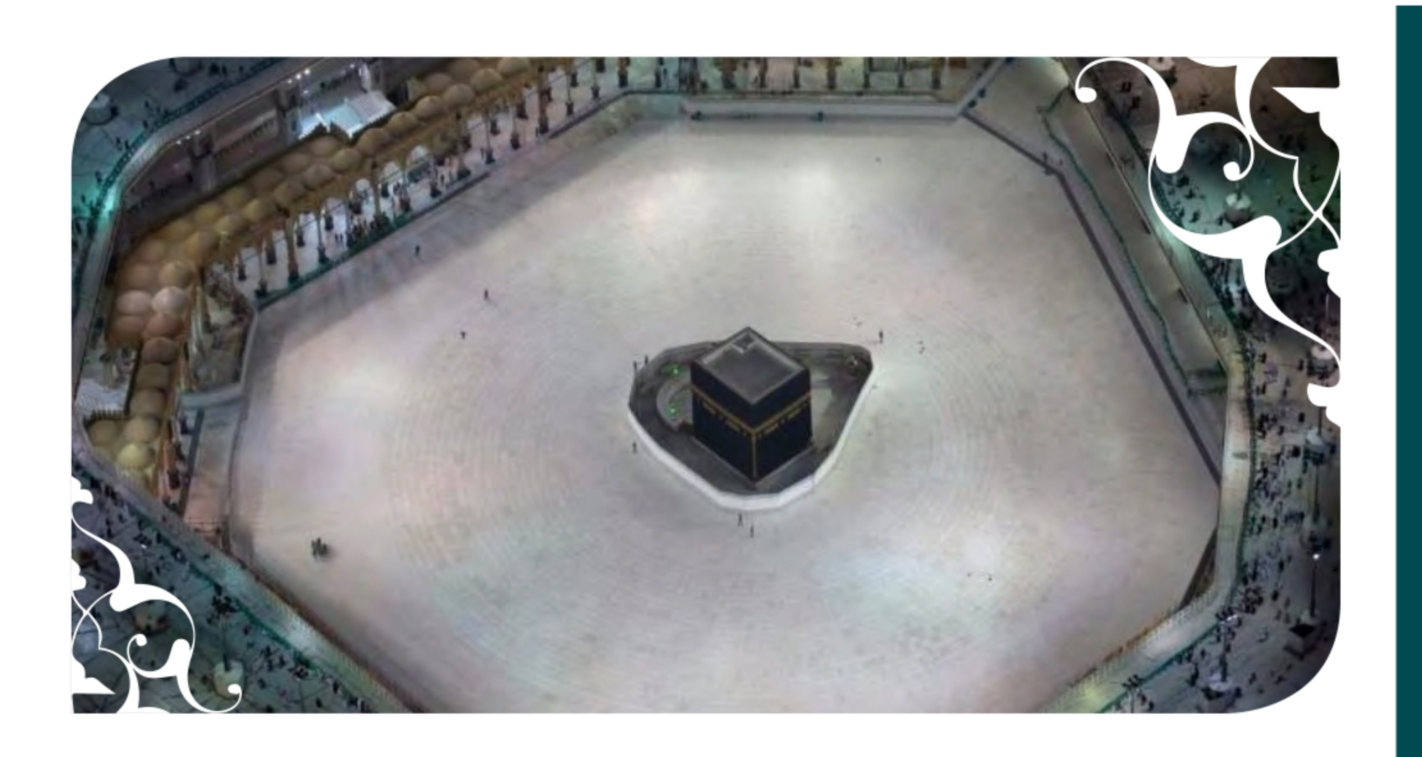
فتاوى كورونا التي هدمت الشعائر

د. مجدي شلش



سيل من الفتاوى المتعلقة بنازلة كورونا، منها ما يتعلق بالفرائض كصلاة الجمعة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام، ومنها ما يتعلق بالنوافل كصلاة الجماعة في المساجد والتراويح في شهر رمضان، هذه الفتاوى بعضها صدر من أشخاص والبعض الآخر صدر من مجامع أو هيئات علمية.

لا عتب أبداً على أناس لا صلة لهم بالعلم وخاضوا بأهوائهم في غلق المساجد وهدم الشعائر التي هي أصلاً مهدومة في قلوبهم قبل سلوكهم، إنما العتب واللوم على من يتصدر للفتوى ويدلي بدلوه وهو منسوب لأهل العلم، وقد قدم بفتواه التي تمنع مطلقاً الشعائر في المساجد فرضاً أو نفلاً، وخاضت في ترك الصيام أو الحج لمنع الضرر المترتب على أداء الشعائر جماعة على طبق من ذهب لهدم الشعائر تأصيلاً وتفصيلاً.



قد يقول قائل إنني أفتيت بالحق، والحق أحق أن يتبع، وافق أهواء المجرمين الذين يتربصون بالإسلام الدوائر والدواهي أو خالف، هذا دين، ويجب أن نفتي به، وهذا المنهج له عندي عدة نصائح:

أولها: الفتاوى التي منعت الشعائر وقالت بحرمة الاجتماع في المساجد لصلاة الجمعة أو الجماعة إنما قامت على أدلة ظنية الثبوت أو الدلالة، وليس لها دليل قاطع يدل على المنع، إنما هي من قبيل الاجتهاد الذي يقبل الصواب والخطأ، وليس من قبيل الحق المطلق، حتى يقال إن الفتوى بالمنع دين وحق وافق أهل الأهواء أو لم يوافقهم.

ثانيها: غالب من قرأت لهم بالمنع ليسوا من أهل الفتوى، الذين توافرت فيهم شروط الاجتهاد، إنما منهم سادة خطباء من أهل الدعوة إلى الله، ومنهم من تخصص في الثقافة العامة، أو نشط في مجال التزكية، ومجال الفتوى وبالأخص في النوازل الكبرى يحتاج إلى تخصص دقيق، **يشمل:**

‹ا› العلم بجميع النصوص التي وردت في النازلة، أو التي تشبهها في غالب أوصافها، حتى يصح التنزيل الصحيح.

<٢> فقه هذه النصوص وعللها في ضوء شرائط الاستدلال التي تمكن الشخص من الاستنباط الصحيح.

<٣> فقه الواقع والوقوف على التحديات التي تحياها الأمة الآن، فمن المعلوم أن الجهل بالواقع وبمفرداته يؤثر في صحة الفتوى، والواقع الذي تعيشه الأمة من الظلم والقتل والهدم لا يخفى على أحد، وفي مقدمة ذلك استهداف الشعائر الإسلامية التي القصد الأول منها إعلاء كلمة الله وإظهار التوجه الإسلامي للأمة.

غالب الأنظمة المتحكمة في رقاب المسلمين الآن لا يرقبون في شعيرة من الشعائر إلًّا ولا ذمة، والواقع خير شاهد ودليل، فهل نقدم لهم على طبق من ذهب هدم الشعائر بأيدينا، أو أن الأمر يحتاج منا إلى تريث وفقه وإنزال الحكم على ما يناسبه، بحيث لا نقع في مخالفة نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة، ولا مقصد ضروري من المقاصد التي أجمع على رعايتها الشرع الحنيف، من حفظ دين أو نفس أو مال أو نسب أو عقل.

الفتوى في النوازل من قبيل الاجتهاد قطعاً، ولما لم يجمع أهل العلم فيها على قول معين، تبقى في حيز الأخذ والرد، والقطع في محل الظن ليس من دأب الأفذاذ من العلماء، إنما من دأب بعض طلبة العلم الذين لم يتقنوا فن الفتوى.

<٤> الاستشهاد بالقواعد الشرعية التي لم تحظَ باتفاق العلماء في المنع من الشعائر وتصويرها للعامة على أنها من قبيل القواعد المتفق عليها، وأنها قاطعة في المنع من الشعيرة نوع من الغش والتدليس والاحتكام إلى مظنون لمنع ما هو ثابت بيقين ألا وهم تعظيم شعائر الله وأنها علامة على تقوى القلوب.

<٥> نعم نفي الضرر مقدم على جلب المنفعة، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، وارتكاب أخف الضررين أهون من ارتكاب أشدهما، كلها قواعد

صحيحة، لكن من الذي عنده المكنة العلمية على تطبيقها على النازلة، هذا ليس للأفراد أو الهيئات المسيسة والتي تدافع عمن يملك قرارها، أو المؤسسات التي تعيش من أجل الأمن ولقمة العيش التي فقدته في بلادها.



تنزيل الواقعة على النصوص الشرعية أو القواعد الشرعية يحتاج على سبيل الوجوب لهيئة علمائية مستقلة، تجمع أهل الاختصاص المحترفين في الفتوى، لا مجموعة هواة ليسوا من أهل التخصص وتلعب بهم الأهواء النفسية من حب الشهرة بالسبق إلى الفتوى والتسرع فيها حتى يكون من أهل السبق.

القدوة في ذلك الصحابة رضوان الله عليهم إذا جد جديد أو نزلت نازلة جمعوا لها أولي الأمر من أهل العلم، فإن اتفقوا صار إجماعاً، وإن تعددت الأقوال فالأمر فيه سَعة، مع وضع الضوابط والمحاذير لمن منع ولمن أجاز حتى لاتكون فتنة ويقع الضرر.

<٦> عرض مذاهب العلماء السابقين من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة وغيرهم من أئمة الاجتهاد المطلق في النازلة أمر مقدر ومحترم، لكن القطع به لزماننا والإلزام به لوقتنا وقد اختلفت الظروف والأحوال، فهؤلاء الأئمة

غالبهم عاش في ظل خلافة تحترم الشعائر الإسلامية وبالأخص ما يتعلق منها بأمور العبادات من صلاة وصيام وحج، ولم يروا المهازل التي تعيشها الأمة في زمن حل فيه الاستخراب العقدي والفكري والأخلاقي والسياسي والمالي، وأصبحت الأمة رهينة عند أبناء القردة والخنازير، فهل تلزم الأمة الآن بما أفتى به المجتهدون في العصر الأول أو الثاني أو الثالث أو الرابع الهجري، أو أن ذلك يقدر ويحترم ويكون موضع الاستئناس عند الفتوى؟

‹٧› ألا من جديد في الفتوى يقدمه العلماء في النوازل، يحترموا فيه النصوص الشرعية والقواعد الفقهية واجتهادات السابقين من أولي العلم من أئمتنا وسادتنا، أم أننا ما زلنا عالة على فكرهم وجهدهم، العصمة للنص وحده، وما عدا ذلك فكل يؤخذ من كلامه ويترك حسب الواقع الذي نرى بأم أعيننا تحدياته وصعوباته تجاه الأمة الإسلامية.

‹٨› الجديد الذي نستطيع أن نقدمه الآن هو: أن يكون القصد الأول من الفتوى ملاءمة المقاصد العامة مع فقه الواقع، والشرع أعطى بل ألزم الاجتهاد في كل نازلة بما يناسبها، والمناسب في نظري الآن هو:

تنادي العلماء الأحرار الذين عرف عنهم إتقان التخصص في إخراج المنتج العلمي المتعلق بالفتوى، وفقههم للواقع بكل ظروفه وأحواله، فإن اتفقوا فقد بدأنا خطوة على طريق الاختصاص ولم شمل أهل العلم، وبداية لما أهم وأعظم، وإن اختلفوا فالأمر فيه مندوحة وسعة.

قد يقول البعض هذا حلم لن يتحقق، أقول: ليس مستحيلاً أبداً، وكثير من الأحلام تحققت على أرض الواقع وأصبحت حالة وعرف، إلى أن يأتي ذلك الأمر أقول برأيي - فإن كان صواباً فمن توفيق الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان والله بريء منه ورسوله - بكل وضوح وصراحة في نازلة كورونا فيما يخص المنع من الصلاة في المساجد وصلاة التراويح والصيام وغير ذلك:

بِحسْب علمي وتخصصي أفتي بالآتي:

أولاً: صلاة الجمعة واجبة باتفاق أهل العلم، وإقامتها واجبة في المساجد بالصورة التي لا يتحقق بها ضرر قطعي، أو يغلب على الظن تحققه، وهذا ممكن، بالتباعد في الصفوف، وأخذ المسافة المناسبة بين المصلين، أما تركها بالكلية أرى فيه إثم كبير لمن أفتى بالمنع المطلق، وبالأخص إذا كان من غير أهل الاختصاص، ومن رواد الإعلام الذي يستضيف المتخصص وغير المتخصص، وإنما يركز على أهل الشهرة.



ثانياً: صلاة الجماعة فرض كفاية في حق أهل البلد، إن تعمدوا تركها جميعاً يحاسبوا على ذلك، وعليهم من الإثم والوزر في ترك فرض من فرائض الإسلام وشعيرة من شعائره، أما على مستوى الأفراد فأهل التحقيق على أنها سنة مؤكدة، لا يصح المواظبة على تركها، فالسنن المؤكدة وإن جاز تركها بالجزء لا يجوز تركها بالكل، وبناء عليه: يلزم أهل كل بلد أن يقيموا ولو جماعة واحدة في بلدتهم، مع أخذ التدابير والاحتياط لمنع انتقال الفيروس لهم، وعلى المستوى الفردي يؤدي كل مسلم على الأقل صلاة واحدة في المسجد يومياً، وإن تيسر له أكثر من ذلك فهو أفضل لا شك.

ثالثاً: صلاة التروايح سنة مؤكدة في رمضان، والاجتماع لها يمثل شعيرة خاصة بالمسلمين في رمضان، ويجب ألا تهدم بالكلية، والعرف فيها أنها في المسجد وليست في البيت، ولا يجري عليها أحكام النوافل الفردية التي جاءت الأحاديث تدل على فضلها في البيت، فما كان شعيرة كصلاة العيدين والكسوف والخسوف والتراويح الجماعة في خارج البيت لا شك أفضل، وبالأخص لو كانت في المسجد، ويتخذ فيها من التدابير ما سبق أن قلته في صلاة الجماعة، وبناء عليه: الفتوى التي تمنع مطلقاً لا حظ لها في نظري من الصواب.

رابعاً: الصلاة خلف المذياع بخصوص صلاة التراويح: ليس فيها إجماع على المنع أو الجواز ممن تكلموا في حكمها، وأرى فيها بالآتي:

ليس فيها نص قاطع بالمنع، وغاية ما استدل به المانعون من أوجه الدلالة لبعض النصوص أو بعض القواعد الفقهية لا يرقى إلى المنع المطلق فيها، فتبقى المسألة في حيز الاجتهاد والأخذ والرد، وبناء عليه: أفتي بجواز قيامها؛ للآتي:

١- لعدم وجود النص القاطع بالمنع، والشروط التي اشترطها العلماء في صحة اقتداء المأموم بالإمام ليس مجمعاً عليها، وغالبها لا يؤدي إلى بطلان الصلاة، وهذه الشروط وضعها العلماء في الأمور العادية وليست جارية في النوازل، فالنوازل لها حكمها بدليل صلاة الخوف التي لها كيفية تختلف عن الصلاة في الأمور العادية، ولا يقولن أحد إن ذلك من قبيل اختراع عبادة جديدة أو هيئة غير معهودة، فالفقهاء في أمر العبادات لهم اجتهادات كثيرة في مثل هذه المسائل عند كثرة الأعداد للمصلين قالوا بجواز التبليغ، وبعد صحة اشتراط رؤية الإمام لصحة الصلاة، وفي ذلك نماذج اجتهادية مناسبة للوقت في كتب الفقه كثيرة، فالاجتهاد الفقهي لا يوسم بالبدعة حيث سمح الاختلاف في المسألة.

٢- في إقامتها تعظيم لما هو قطعي، إذ إنها من جملة الشعائر التي يجب أن تحترم وتقدر، وفي إقامتها تحقيق مقاصد شرعية كثيرة لا تخفى على من كان من أهل العلم.

٣- إقامتها مشروطة بعدم تحقق الضرر القطعي أو الظني من انتقال الفيروس، وإما إذا تحقق عدم الضرر فإقامتها في المساجد وما يلحق بها هو الأولي، فمن المعلوم فقها أن الميسور لا يسقط بالمعسور، وما لا يدرك كله لا يترك كله، في العبادات والمعاملات، وبناء عليه: فالفتوى بالمنع المطلق فتوى جامدة صلبة لم تتحر الواقع المحلي ولا الإقليمي ولا العالمي، وتماهت مع أصحاب الأهواء وإن لم تقصد ذلك.

خامساً: يجري على الحج كشعيرة ما قلته في أمر صلاة الجمعة وصلاة الجماعة.



سادساً: الصيام فريضة تركها لأدنى ملابسة خطر عظيم وبهتان كبير، وما يجري على الفرد فيها إن كان مريضاً أو مسافراً لا يجري على جميع الأمة، وقد ثبت بيقين أن الصوم له تأثير إيجابي على الصحة وبالأخص فيما يتعلق بالمناعة، وبناء عليه: كل من أفتى بحرمة الصوم في نازلة كورونا لا حظ لفتواه من الصحة.



من
تراث
الأزهر

رمضان

بين تقاليد الماضي
وهزائم الحاضر

للشيخ محمد الغزالي

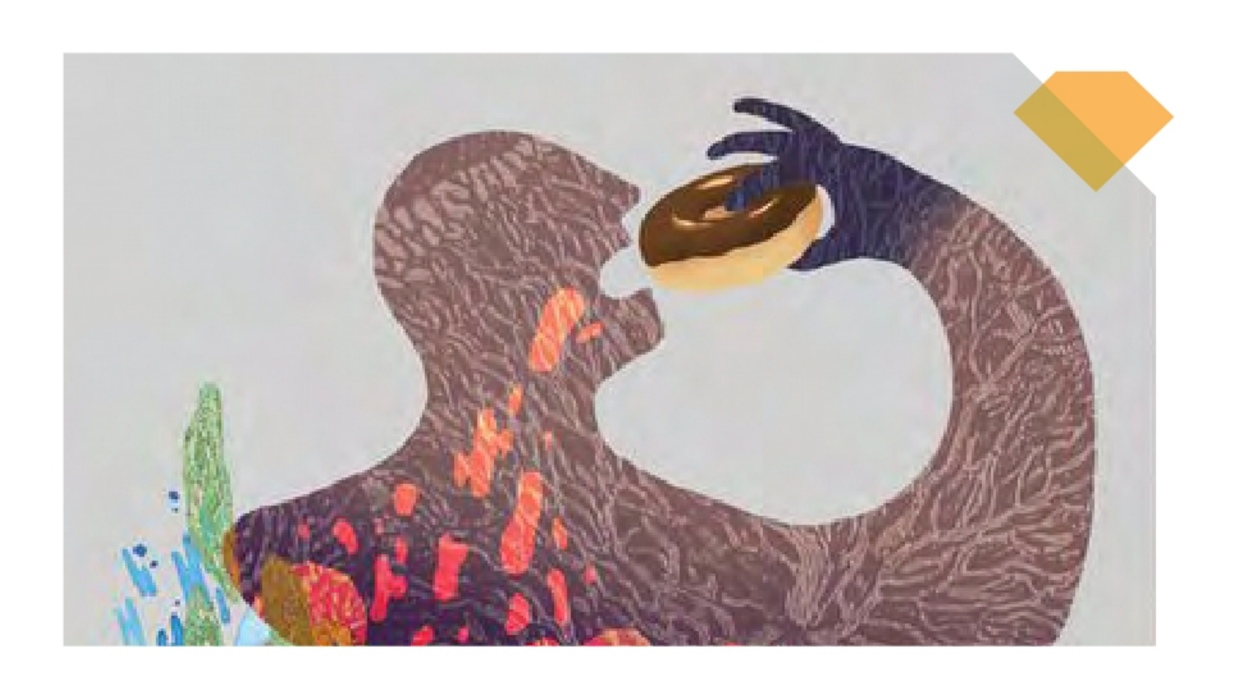
إنَّ عبادة الحياة، وتكريس القوة والوقت لها وحدها، علة قديمة بين الناس، وهي العلة التي أرخصت القيم الرفيعة، وألهبت الغرائز الوضيعة، وصرفت القصد عن الله، وعلَّقت الهمة بالحاضر القريب، ونسيت ما عداه!!

للجسد الإنساني وقوده الذي يحيا به ويتحرك، ويستحيل حرمان هذا الجسد من مصادر وجوده ونمائه وتنقله هنا وهناك!

التجويع التام يقتله، والحرمان من عناصر رئيسية يثير الاعتلال في كيانه، ويفرض عليه الذبول واللغوب.

ولم يجئ في شرع الله تكليف من هذا النوع المحرج، بل جاء في السنة استعاذة النبي ﷺ من هذا البلاء: **(أعوذ بك من الكفر والفقر، وأعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت).**

لكن الواجدين من الناس عندما يطعمون لا يكتفون بتناول الغذاء المطلوب لأبدانهم، بل يلتهمون مقادير أكبر.. كلٌّ على قدر نهمته وطاقته!! ونحن نفتنُّ في تزويد أنفسنا بأزيد من حاجتها، والرغبات تمتدُّ مع التلبية المستمرة، وتألف ما اعتادت، وتطلبه إن فاتها !!



وهذا الجسد قادر على اكتناز ما يفرض عليه إما بدانة مفرطة، أو قبولاً لما يشحن به، ثم عملا صوريًّا فيه، ثم خلاصا معنتاً منه!! وهو الخاسر في هذا الجهد الضائع، والحياة العاقلة من حوله تقول: لو كان هذا نصيب

معدة فارغة لكان خيرا له ولها، ولكان أسعد وأرشد، وقديما قيل:

والنفس طامعة إذا أطمعتها وإذا ترد إلى قليل تقنع!!

لعل فريضة الصيام تذكرنا بهذه الحقيقة النفسية التائهة، لكن هناك شيء آخر يجيء رمضان ليذكرنا به نحن- العرب والمسلمين- في أقطار الأرض كلِّها.

نعم، إذا كانت شهية بعض الناس مفتوحة للمزيد من ملذات الدنيا، فما أحرى المنهزمين بأن تنكمش أيديهم، وتغصَّ حلوقهم، وإذا كان أهل الأديان كلها يمرحون ويهشون، فما أحرى بني الإسلام بالصيام عن فنون المتع وألوان السرور.

ذلك أنَّ المرحلة التي يمرون بها لا تتحمل من ذلك قليلًا ولا كثيرًا.. في أعقاب المتاعب التي تصيب الأمم، وتنتظم آلامها الأفراد والجماعات، يحدث تغير شامل في السلوك القومي العام، ويزهد الصغار والكبار في فنون من المتع كانوا من قبل يألفونها، وأنواع من المرح طالما ابتهجوا أيام السلام بها .

وهذه عادة عربية قديمة، كان أسلافنا الأوائل إذا نال منهم عدو أو حل بهم مكروه، هجروا تقاليد السرف والترف، وصدوا عن أسباب اللهو والمجون، وما يسمح أحدهم لنفسه بسرور غامر، وضحك عال إلا إذا نال ثأره، أو استردَّ ما فقده، أو أوقع بخصمه مثل ما نزل به، فإذا تمَّ له ما يبغى قال وهو مستريح:

فَسَاغَ لِيَ الشَّرَابُ وَكُنْتُ قَبْلاً أكَادُ أغَصُّ بالمــاءِ الفُراتِ

وقد نزل أبو سفيان، وجمهور أهل مكة على هذه العادة بعد هزيمتهم في معركة بدر، فحلف أبو سفيان أن يحرم نفسه شتى الملذات حتى يدرك ثأره من محمد...

إنَّ الأثـر النفسـي العظيـم لفريضـة الصيـام هـو تدريـب المؤمـن على ضبـط نفسـه، وإحـكام أمـره وتقييـد شـهواته، فهـو إذ يتـرك بعـض الأعمـال المباحـة يتمـرَّن على تـرك جميـع الأعمـال المحظـورة، أو التـي تفـرض ظـروف المـروءة وأعبـاء الكفـاح أن يتركهـا، وقديمـا قـال رجـل عزيـز صلـب:

يَقُولُـونَ هَـذَا مَـوْرِدُ قُلْـتُ قَدْ أَرَى   ولكـنَّ نَفْسَ الْحُـرِّ تحتمِلُ الظَّمَا !!

ولقـد كان رسـول الله ﷺ صاحـب طاقـة كبيـرة على الحيـاة مهمـا تباينـت ظروفهـا، واختلـف عليهـا العسـر واليسـر، والانكسـار والانتصـار، ولقد علَّـم أصحابه أنَّ الاستسـلام للشـهوات الماديـة، والحـرص على نمـط معيـن مـن الملـذات سـقوط بالهمـة، وخـور في العزيمـة، واسـترخاء مـع الشـيطان.



قـال عليـه الصلاة والسـلام ... ((**إنَّمـا أخشَـى عليكـم شـهَواتِ الغَـيِّ في بطونِكـم وفروجِكـم ومُضلَّاتِ الهوَى**)) ... وقـال- يصف عشـاق الليونة والرخاوة والمظاهـر الجوفـاء- (**تعـس عبـد الدينـار، تعـس عبـد الدرهـم، تعـس عبـد القطيفـة، تعـس عبـد الخميصـة**). والقطيفـة والخميصـة أنـواع مـن الأقمشـة الملبوسـة والمفروشـة، تمتـاز بالفخامـة والنعومـة، يحـرص عليهـا طـلاب الراحـة وعبيـد المثـل الدنيـا لا المثـل العليـا.

ويظهر أنَّ بعض المسلمين لا يستفيدون من صيامهم هذه الآثار النفسية والاجتماعية التي تعين على خلق شعوب مجاهدة تتحمل متاعب الحصار الاقتصادي والعسكري، وأنهم حريصون في جوانب كثيرة من حياتهم على تقاليد اليسار والسعة والتشبث بما ألفوه أيام السلام والسلامة!

وما نفكر في تحريم مباح، ولا في زجر الناس عن طيبات أُحلَّت لهم، ولكننا نفكر في مواجهة العدو المتربص وضرورة وعي الأساس الأوحد للقائه، وهو أنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم.. عندما أعلن غاندي المقاطعة السلبية، وحمل شعبه على الرضا بخيوط المغزل الهندي، وهجر الإنتاج الرائع لمصانع إنجلترا ونسيجها الرقيق الجيد- كان ذلك (الصيام) بداية التحرر ونهاية الاستعمار، ولذلك يقول الشاعر العربي رشيد سليم الخوري:

لَقد صامَ هِنْدِيٌّ فَجَوَّعَ دَوْلَةً فهَلْ ضارَ عِلْجاً صَوْمُ مِلْيون مُسْلِمِ

إنني ألفت أنظار قومي إلى أننا أمام جهاد شاق المراحل، ثقيل التكاليف، وأنَّ النجاح فيه يتطلب من الآن نظرة عابسة، ورفضًا لصنوف المباهج!!

ترى هل أستطيع أن أقترح إلغاء أفراح الأعياد؟ والاكتفاء بشعائرها الدينية الرصينة وحسب؟

إنَّ ولع العرب الشديد باللهو واللعب منتهٍ بهم بتة إلى التلاشي، ودلالته واضحة على موت القلوب وقبول الدنايا، وعشق الدنيا وكراهية الموت..

إنَّ عبادة الحياة، وتكريس القوة والوقت لها وحدها، علة قديمة بين الناس، وهي العلة التي أرخصت القيم الرفيعة، وألهبت الغرائز الوضيعة، وصرفت القصد عن الله، وعلَّقت الهمة بالحاضر القريب، ونسيت ما عداه!!

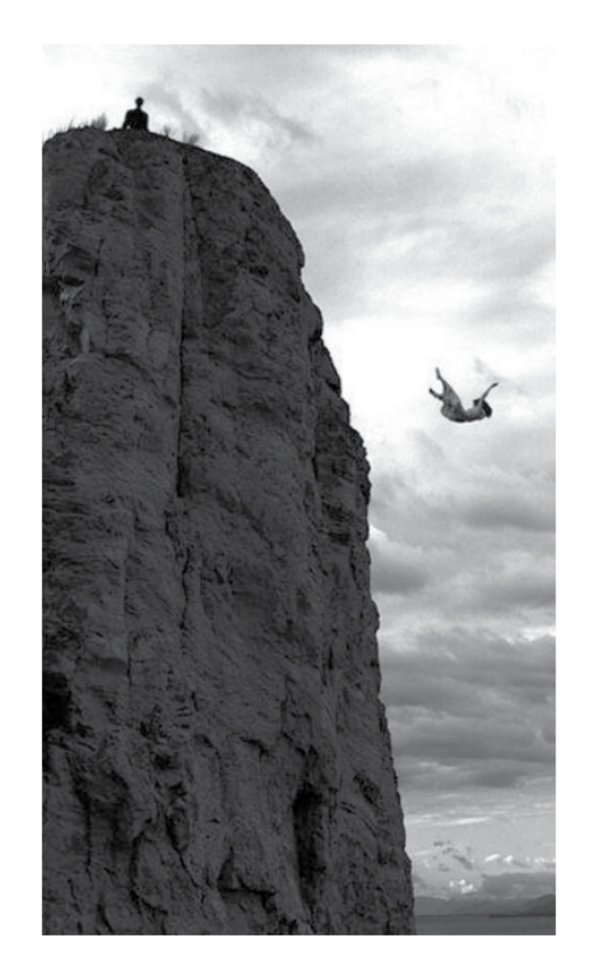
في المجتمعات التي فتكت بها هذه العلة يقول جلَّ شأنه: **«إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا}** [الإنسان: ٢٧] ويقول: **{فَأَعْرِضْ عَنْ**

مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى»[النجم: ٢٩، ٣٠].

ومظاهر هذه العلة معروفة في انتهاب اللذات من غير شبع، والبحث عنها دون اكتراث بحل أو حرمة، واعتبار الوجود الأرضي هو الإطار الأوحد للحس والإدراك.

فإن فات فليس عنه عوض، وإن أقبل فيجب التفاني فيه، وارتشافه حتى الثمالة! إنَّه لا شيء بعده يرتقب!!

وأحسب أنَّه في هؤلاء يقول جلَّ شأنه وهو يذيقهم عذابه: «ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ» [غافر: ٧٥، ٧٦].



والمدنية الحديثة قد ضاعفت لأبنائها الفرص لعبادة الحياة والعبِّ منها دون ارتواء، وذلك أنَّ الشهوة تُغري بالشهوة كما أشرنا آنفًا، والرغبات الإنسانية قد يضرُّ بها القرب، ولا يزيدها الظفر إلا اشتعالًا ...

والأديان في أوربا وأمريكا عجزت عجزًا تامًّا عن علاج هذا السعار لقصورها الذاتي أولًا، ولاشتغالها مع ذلك بمحاربة الإسلام بدل أن تتعاون معه على فعل شيء ما يحفظ على الإنسانية مستقبلها المتداعي.. والغريب أن المسلمين نافسوا غيرهم في التهاوي على هذه المتع، والتشبع منها جهد المستطاع.

قد تقول: وما الغرابة في ذلك؟ أليسوا بشرًا كالبشر؟

وأجيب: إنني لا أنكر على المسلمين - خاصة - أن يشاركوا الأوروبيين والأمريكيين في ألوان المتاع التي اخترعوها.

إنني قد أفهم أن يعود رواد الفضاء من رحلة مضنية ليلتمسوا بعض النزه البريئة أو المريبة في ليل أو نهار.

أما الذين يتسكعون بين دورهم وأجران القمح والأرز، أو الذين يتركون خيامهم على مدى سهم في مراعيهم الساذجة، أو الذين يركبون سيارتهم ليجلسوا في الدواوين محسودين لا مجهودين .. أو .. أو فما لهؤلاء والبحث عن اللذات المخترعة في الشرق أو الغرب؟

إنَّ بعض الناس يذهب إلى العواصم العالمية المرموقة، ثم يعود ليتحدث عن لياليها الصاخبة!! فهلا تحدث عن أيامها الجادة، وعن العرق المتصبب من أجساد الكادحين للصغار والكبار على سواء؟؟

إنَّ المهندس هناك قد يغبر وجهه وملبسة كله طوال النهار، ثم ينطلق بعد ذلك ليستجم وفق ما يفهم ويعتاد.

ويوجد عندنا من يقلده في الانطلاق الأخير، ولا يتأسى به قيد أنملة في الكفاح الذي سبقه!!

أيُّ بلاء أصاب العرب والمسلمين حتى عموا عما يجب أن يرى، وحملقوا عيونهم فيما يجب أن تغضَّ عنه، وتسترخي بإزائه؟

إنهم لو فقهوا سرَّ الصيام وسرَّ الحياة العفيفة المبنية عليه لكان لهم موقف آخر..

بل لو أنهم أدركوا ما كانوا عليه، وما صاروا إليه، وما تبيته القوى المتربصة

بهم، لكان لهم قبل الصيام صيام، وقبل القيام سهر يطير معه المنام!!

من سنين طوال ورمضان يستقبله العرب والمسلمون بطريقة رتيبة: روايات أقلُّها جاد وأكثرها هازل، تعرضها الإذاعات المسموعة والمرئية. أغانٍ بعضها ديني، والآخر لا دين له تشنِّف الآذان. فكاهات تخلق الأجواء الضاحكة وتسلي الجماهير التائهة. مواعظ تقليدية ممجوجة يفرُّ أغلب الناس من سماعها، أو كتابات إسلامية في موضوعات مختارة عن عمد لتخدير الفكر، وتفتير الهمم.

صور جميلة أو دميمة للمساجد والآثار الإسلامية.. أحفال باهتة جرى رسمها وإخراجها بحيث تنعدم فيها الروح ويضعف التأثير.

إنَّ أعداء الإسلام لا يطلبون من أمَّة الإسلام أن تفعل بنفسها أكثر من ذلك.

لما مات أبو امرئ القيس الخليع الضليل، قال هذا الشاعر يصف ما سيفعل:

اليوم خمر وغدًا أمر!

لقد جعل لسكره حدًّا ينتهي عنده، إنه اليوم وحسب.

وما امرؤ القيس وهو يجاهد لاستعادة مجده، ويقول لصاحبه يسليه عن هموم الكفاح ومشقات الضرب في الأرض:

فقلتُ لَهُ لا تبكِ عينُكَ إنَّما ... نُحاول مُلكاً أو نموتُ فنُعذرا !!

لكن جمهرة كبيرة من شباب العرب لا يزالون يقولون: اليوم خمر وغدًا خمر.. فمتى الصحو؟

ألا يستحق المسجد الأقصى وقفة تدبر واستعبار، يتلاوم فيها المفرطون ثم يغضبون لله غضبة تمحو العار، وتدرك الثأر؟![1]

---

(١) الشيخ محمد الغزالي، رمضان بين تقاليد الماضي وهزائم الحاضر، مجلة الوعي الإسلامي، السنة الثامنة، عدد٩٣، رمضان ١٣٩٢، الموافق ٨ أكتوبر ١٩٧٢م.



مقال
عالم
أسير
رمضان
ولجام
الشهوات
د. صلاح سلطان
فك الله أسره
في هذا المقال نورد بعض البرامج المهمة التي أوردها د. صلاح سلطان فك الله أسره والتي تعين على الاستفادة القصوى من شهر رمضان المبارك:



يقول فرج الله عنه:

البرنامج الأول: الإخلاص:

الإخلاص أن تحول العادة إلى عبادة خالصة لله تعالى؛ فعادة الطعام والشراب، تكون عبادة لله عز وجل، نأكل لله عند الغروب ونمتنع عن الطعام لله عند الفجر ، بعض المسلمين يصومون لأن رمضان أتى، وهيئة الإفتاء أعلنت أن رمضان غدًا، ونحن نصوم مع الناس، لكن الأصل أن نصوم لرب الناس، لما ذكره النبي فيما يرويه عن ربه: "الصوم لي وأنا أجزي به".

لا تجعلها عادة أن تصوم لأن كل الأحاديث في البخاري ومسلم "من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه"، "من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه"، "من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه". كل مرة توجد عبارة "إيمانًا واحتسابُا"، إذن الإخلاص يجعلك لا تصوم عادة وإنما زلفى وقربى وتوسل لله تبارك وتعالى الذي يحبنا، ويعلم أننا نخطئ فيقول لنا أعطيت لكم فرصة الصيام لتعودوا إلى أتقياء أنقياء أصفياء، وليس فقط صفاء من الذنوب وإنما ارتقاء في الحسنات، جبال من الحسنات تنتظرنا إن كان الإخلاص سرًا مدفونًا في قلوبنا يدفعنا إلى العمل لله عز وجل.

‹› الإخـلاص هـذا سـر يقذفـه الله في قلـب مـن يشـاء ممـن أحـب مـن عبـادة فيجعـل العمـل القليـل جـدًا كبيـرًا جـدًا، أمـا العمـل الكبيـر بـلا إخـلاص فـلا فائـدة منـه؛ تخيـل أن أول مـن تسـعر بهـم النـار ليسـوا الظلمـة، ليسـوا الفسـقة، ليسـوا الزنـاة، ليسـوا أصحـاب المخـدرات، ليسـوا الذيـن يقتلـون النـاس بغيـر الحـق، وإنمـا ثلاثـة: رجـل أنفـق ليقـال: جـواد، و رجـل قاتـل ليقـال: شـجاع ، وعالـم عّلـم العلـم ليقـال: عالِـم ، هـؤلاء المـراؤون أول مـن تسـعر بهـم النـار، كمـا جـاء في الأحاديـث الصحيحـة.

ومن هنا لابـد من الإخلاص عنوانا لكل عمل.

البرنامج الثاني: الاقتصاد في الطعام والشـراب:

هـذا مِفتـاح مهـم جـدًا لأن مـن الممكـن أن يكـون عنـدك إخـلاص ولا تأخـذ قراراً بالاقتصـاد في السـحور والفطـور، ومـن رحمـات الله أن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال: "السـحور أكُلـه بركـة، فـلا تدَعـوه و لـو أن يجـرع أحدكـم جرعـة مـاء، فإن الله وملائكتـه يصلـون على المتسـحرين".

كـي نطعـم قلوبنـا وجبـة مـن الرحمة، مـن السـعادة، من الانشـراح، عنـدما نقوم في السـحر نطعـم أجسـادنا، لكن الله يطعمنـا في قلوبنا وفي عقولنـا نورًا ورحمة فـإن الله وملائكتـه يصلـون على المتسـحرين، والأصـل أن يسـتحضر كلٌّ منـا هـذا المعنـى ولا يمـلأ بطنـه عنـد السـحور اعتقـادًا بـأن اليـوم طويـل، والعمـل كثيـر، والإجهاد شـديد.

‹› اسـتعن بـالله ولا تعجـز، هـي مسـألة تحتـاج إلـى عـزم وإرادة، وفيـك هـذه الإرادة أن تقـوم عـن الطعـام قبـل أن تشـبع، جِـرب مـرة واسـتطعم هـذه الخفـة في جسـدك، وسـتجد أنـك صـرت نشـيطًا إلـى صـلاة الفجـر في المسـجد، صـرت نشـيطًا إذا أفطـرت، عجلـت الفطـر، صليـت المغـرب ثـم أكلـت بعـد ذلـك دون أن

تمتلئ، تذهب لصلاة التراويح بخشوع وخضوع لله سبحانه وتعالى، تستلذ معاني القرآن، تستشعر كل آية تقرأ من كتاب الله عز وجل. لكن البطنة تذهب الفطنة، الدم الذي يجب أن يصعد إلى العقل ينزل إلى البطن ليهضم فلا يقوى على قيام ولا على قرآن ولا على شيء، فهذا مفتاح ضروري جدًا تعاهد الله عليه.



هناك مسلمون كثر يقولون نحن نصوم ولا نجوع، وهذا من الشره الذي أصابوه قبل الفجر وبعد المغرب؛ المحلات ممتلئة بأنواع جديدة وعديدة ومكسرات وأنواع لا تظهر إلا في رمضان! أقول يا إخواني إن الصيام يجعل الإنسان يحس بآلام الفقراء، آلام الجوعى، آلام المحتاجين، نجوع يومًا فنذكر ربنا، ونشبع يومًا فنشكر ربنا، الذكر والشكر مطلوبان لكن الإنسان يمتلئ ويفخر أنه لا يجوع طوال اليوم.

"فمن أكثر من الإفطار بعد صيام طويل كمن بنى قصرًا وهدم مصرًا"، بنى قصراً وهدم بلداً بالكامل، بنيت قصرًا طوال اليوم وتأتي المغرب وترى المائدة مليئة فتهجم، ابدأ بتمرة ، أو شربة ماء أو لبن ، لأن النبي يقول: "من وجد تمراً، فليفطر عليه، ومن

‹› لا يجد فليفطر على الماء، فإنه طهور". وهذه مادة سكرية تصل بسرعة إلى العين، وتعطى المخ إشارة بأن السكريات الموجودة في التمر كافية وخالية من الدهون وتذهب إلى العقل، وتعطي إشارة أن الإنسان أخذ قسطاً كبيراً لم يعد جوعاناً كما كان، ثم تصلي المغرب و تعود ، تكون المعدة قد هضمت التمرة مع جرعة الماء ، ويرجى أن يتحقق ما جاء في الحديث "ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله".

وليس كهذا الذي يرى أن الحياة شراب وطعام ولهو ومنام فإذا لم تنلها فعلى الدنيا السلام! لا! الله سبحانه وتعالى يقول: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ} [محمد: ١٢] ولسنا كذلك، نحن آدميون ونحن مسلمون لنا صبغة خاصة كما قال ربنا سبحانه وتعالى: **{صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}** (البقرة: ١٣٨).

البرنامج الثالث: قراءة القرآن:

ما كُرم شهر رمضان إلا من أجل القرآن، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} (البقرة: من الآية **١٨٥**)، وروى البيهقي وأحمد والحاكم بسندهم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله قال: "الصيام والقرآن يشفعان للعبد، يقول الصيام: أَيْ رَبِّ منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه، فيُشفعان".

‹› لو اقتصدنا في الطعام، نسمع القرآن غضًا طريًا كما أنزل، نذهب إلى البيت ونمسك بالمصحف، أريد من كل أخ وكل أخت أن يمسك القرآن ويعزم أن يختم القرآن مرة في رمضان إذا كنت تقود السيارة إلى عمل في مكان بعيد ضع شريطًا في السيارة واستمع بإنصات: **{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}** (الأعراف: ٢٠٤)

مهم جدًا أن تختم القرآن في رمضان كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم، كان جبريل يراجعه القرآن في كل عام، لا بد أن نسعى لهذا لأقصى ما نستطيع لأن القرآن حقيقة هذا النور الذي بغيره لا نستطيع إلا أن نكون أشقياء لقوله تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} (الأنعام: ٢٦).



وقد كان أحد الصحابة يقول: لي ختمة كل أسبوع، وختمة كل شهر، وختمة كل سنة، وختمة بدأتها منذ عشرين عامًا لم أنتهِ منها إلى الآن. اليوم أريد من كل أخ وهو يقرأ ورده القرآني بالليل أو بعد الفجر أن يلتقط آية انفعلت بها مشاعره، ونبض لها قلبه، والتفت إليها عقله، يرددها طوال اليوم، يعيش معها، ستصنعه من جديد، ستغير كثيرًا جدًا من العادات المركوزة في النفس. ستنقل الإنسان من الانشغال بأشياء تافهة حقيرة، إلى معالي الأمور، "إن الله جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأمور، ويكره سفاسفها".

أريد أن نرتاد مقارئ القرآن بالمساجد، ونتعلم الترتيل {ورتِّلِ الْقرآنَ ترتيلًا} [المزمل:٤]، {...وأُمِرت أَن أَكون مِن الْمسلِمِين* وأَن أَتْلوَ القُرآن...} [النمل:٩١-٩٢]، والتلاوة قراءة بنغم حتى تمتع العينين والقلب والعقل والوجدان فيتحول القرآن إلى

جـزء مـن كيانـك، من حياتك، لا تسـتطيع أن تأكل يومـاً ثم تهجر القرآن، لا تسـتطيع أن تمتـد بـك الأيـام دون أن تختـم القـرآن من أوله إلـى آخره، حالاً على أولـه مرتحلًا إلـى آخـره، قـراءة أواسـتماعاً أو همـا معًـا، ثـم تدبـر بالعقـل، وتأثـر بالقلـب وتغيـر بالنفـس في رمضـان شـهر القرآن.

البرنامج الرابع: القيام:

لا تعـط موعـدًا وقـت صـلاة التراويـح، حـرره لله تعالـى، واجعـل موعـدك مع الله في القيـام في رمضـان موعـدًا ثابتًـا، هـل هنـاك أحد عنـده امتحان يعطـي موعدًا في وقـت الامتحـان؟ لـم يحـدث أن أحـدًا عنده مقابلة مع شـخص مسـئول وأعطى موعـداً آخـر في نفـس الوقت.

نحـن في موعـد مـع الله كل صـلاة، وبخاصـة صـلاة القيـام؛ لأن هنـاك أحاديـث خاصـة في الصحيحيـن: **"مـن قـام رمضـان إيمانًـا واحتسـابًا غُفـر لـه مـا تقدم مـن ذنبـه ومـا تأخر".**

<> تخيـل لـو صلينـا **٣٠** ركعـة كل يـوم، **١٧** فريضـة، و**١٣** ركعـة نافلـة في شـهر مـن الشـهور العاديـة تأخـذ ثـواب **٣٠٠** ركعـة، إلا في شـهر رمضـان تضاعـف سـبعين ضعفًـا، هـذا كـم هائـل مـن الحسـنات يفوتنـا لـو تركنـا التراويـح!

قـل لـي يـا أخـي: هـل جلوسـك أمـام التلفـاز أو جلوسـك مـع الأصحـاب أو في المقاهـي أو في السـيارات أو في غيرهـا يمكنـك أن تنـال مثـل هـذا الأجـر الوفيـر الكثيـر؟ يـا أخـي الكريـم أوقـف حياتـك في هـذه الأوقـات لله تعالـى، وإذا كنـت مشـغولاً وقـت صـلاة التراويـح صلِهـا في البيـت مـع الأهـل، أو صلهـا وحـدك لكـن لا تتركهـا تفوتـك أبـدًا، فهـي غنيمـة بـاردة غنيمـة كبيـرة تصنـع في الفـؤاد قـوة هائلـة جـدًا"[١].

(١) د. صلاح سلطان، الصيام لجام الشهوات الأربع، ص ٢٠ وما بعدها، كتاب إلكتروني.

ملف : أوراق أفغانية..التاريخ السري للحرب

عالقون بلا استراتيجية (ج٣)

كان لدى بوش وأوباما خُطط على طرفي نقيض لكسب الحرب وقد فشلت كلها

تحقيق حصري لصحيفة واشنطن بوست[١]

ترجمه لمجلة كلمة حق: حامد عبد العظيم



الذي يقولونه في العلن

٢٧ يوليو ٢٠١٠

"يجب علينا تصنيفهم إلى عنيد لا يقبل المساومة، وإلى طرف يمكن التفاهم معه، وسوف نحيّد القسم الأول منهم".

جنرال البحرية آنذاك جيم ماتيس، عن طالبان خلال جلسة استماع بمجلس الشيوخ.

---

[١] كاتب الاستقصاء هو الصحفي بواشنطن بوست: كريج ويتلوك. والاستقصاء منشور بتاريخ ٢٠١٩-١٢-٩.



افتقر أوباما -كسابقه بوش- إلى استراتيجية دبلوماسية فعالة للتفاهم مع طالبان.

كانت إدارة أوباما في العلن تدعو إلى "**مصالحة**" بين الحكومة الأفغانية وقادة التمرد، لكن مقابلات الدروس المستفادة تظهر أن مستشاري أوباما اختلفوا بشدة حول ما يعنيه ذلك.

وقال روبين، الذي فضّل التحدث إلى طالبان، للمقابلات إن بعض المتشددين حصروا المصالحة في شريحة معينة وصفها قولهم: "سنكون لطيفين مع الأشخاص الذين يستسلمون".

وقال على وجه الخصوص إن وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون كانت "مترددة جداً في المضي قدماً في هذا"، بسبب تطلعاتها الرئاسية.

وقال روبن: "النساء يشكلن دائرة انتخابية مهمة للغاية بالنسبة لها، لم تستطع الترويج لعقد صفقة مع طالبان". "إذا كنت تريد أن تكون أول امرأة تترأس، فلا يمكنك التلميح أو فعل ما يشكك في أنك أقوى شخص في الأمن القومي".



» **جادل دبلوماسيون آخرون بأن محاولة الاتفاق مع طالبان ما هي إلا مضيعة للوقت.**

وقال ريان كروكر، الذي عمل سفيراً لأوباما في أفغانستان في الفترة من ٢٠١١ إلى ٢٠١٢، لمحاوري الحكومة: "لم أصدق أبداً أن المفاوضات مع طالبان، أياً كان من يجريها، ستقود إلى أي نجاح".

شعرت أن المفاوضات على الأكثر يمكنها أن تحيد عدداً من أفراد طالبان وتجعلهم في صف الحكومة، وأن هذا سيحدث بالتدريج".

»**في مقابلات الدروس المستفادة، أقر مسؤولو إدارة أوباما أنهم فشلوا في مواجهة تحدٍ استراتيجي آخر أزعج بوش، وهو ما يجب فعله حيال باكستان.**

» **واصلت واشنطن منح باكستان مليارات الدولارات سنوياً للمساعدة في مكافحة الإرهاب. ومع ذلك، لم يتوقف القادة العسكريون والاستخباراتيون الباكستانيون عن دعم طالبان الأفغانية وتوفير الملاذ لقادتها.**

قال مسؤول سابق بالبيت الأبيض لمحاورين حكوميين عام ٢٠١٥: "اعتقدت إدارة أوباما أنه إذا بقيتْ هناك سترى باكستان النور".

في مقابلة منفصلة عام ٢٠١٥، اشتكى مسؤول آخر لم يذكر اسمه من أن إدارة أوباما لن تسمح للقوات الأمريكية بمهاجمة معسكرات طالبان على الجانب الباكستاني من الحدود.

وقال المسؤول "وما زلنا حتى اليوم نتساءل ما المشكلة!". "لقد تحدثت إلى الجنرال بتريوس وقلت لو كنت جنرالًا وأُطلقت رصاصة على رجالي سأطارد مصدرها، فقال بتريوس نعم، حسنًا، تحدث إلى واشنطن!".

وقال كروكر، الذي عمل أيضًا سفيرًا للولايات المتحدة في باكستان من عام ٢٠٠٤ إلى عام ٢٠٠٧، لمحاوري الحكومة: "إن القادة الباكستانيين لم يكلفوا أنفسهم عناء إخفاء ازدواجيتهم".

وقد روى محادثة أجراها مع الجنرال أشفق كياني، الذي كان آنذاك رئيس المخابرات الباكستانية، والذي كان يتابع معه شأن طالبان، قال فيها: "أتعلم؟ أعرف أنك تعتقد أننا نحوط رهاناتنا، أنت على حق، لأنكم في يوم من الأيام سترحلون، الأمر سيكون مثل أفغانستان في المرة الأولى، سوف ينتهي أمركم، لكننا سنبقى هنا ولا نستطيع نقل بلادنا إلى مكان آخر. ولا يمكن أن نضيف إلى كل مشاكلنا الأخرى تحويل طالبان إلى عدو مميت، لذا، نعم، نحن نحوط رهاناتنا".

قال كروكر في مقابلات الدروس المستفادة في ديسمبر ٢٠١٦: "إن الطريقة الوحيدة لإجبار باكستان على التغيير تكون بإبقاء ترامب القوات الأمريكية في أفغانستان إلى أجل غير مسمى، ومنحها الضوء الأخضر لمطاردة طالبان على الأراضي الباكستانية".

إن ذلك سيسمح له بالقول: "أنت قلق بشأن مصداقيتنا، ومن انسحابنا من أفغانستان، أنا هنا لأخبرك أنني سأبقي القوات هناك طالما أشعر أننا بحاجة إليها".



”هذه هي الأخبار الجيدة، أما الأخبار السيئة بالنسبة لك فهي أننا سنقتل قادة طالبان أينما وجدناهم: بلوشستان، البنجاب، وسط إسلام آباد، سنذهب للعثور عليهم، لذلك ربما تريد إعادة التفكير في استراتيجيتك“.

الذي يقولونه في العلن

٢ فبراير ٢٠١٥

”التكتيك بدون استراتيجية طريق جيدة للفشل“[1].

في البداية، كانت الآمال كبيرة أن تؤدي استراتيجية أوباما إلى تغيير الاتجاه، لكن المسؤولين العسكريين والمدنيين الذين اشتركوا في مقابلات مشروع SI-GAR قالوا إنه سرعان ما أصبح واضحًا أن الدروس المستفادة من منطقة حرب ما لا تنطبق بالضرورة على الأخرى.

قال ضابط مجهول الهوية من القوات الخاصة عمل في أفغانستان عام ٢٠١٣،

(1) مسؤول ألماني غير مذكور اسمه لمقابلات الدروس المستفادة

إن جميع القوات هناك كانت تعتقد أن أفغانستان ستكون مثل العراق تمامًا. قال: "كانوا يشيرون إلى العراق باستمرار، ولكن كون القرويين يرتدون الروب ويتحدثون لغة ديركا ديركا[1] لا يعني أنها البلد نفسه".

قال الضابط لمقابلة الحكومة إن الاستراتيجية الجديدة لمكافحة التمرد كانت متعجلة، إذ تلقت القوات توجيهات شحيحة من الأعلى: "لم نُعطَ أي وثائق تعلمنا كيفية القيام بعملنا، لقد أُعطينا الأولويات الاستراتيجية الغامضة للقائد، لكن ذلك كان بمثابة "اذهب وافعل أفعالاً جيدة". فالقيام بالأمور على وجهها الصحيح سواء على المستوى الاستراتيجي أو التشغيلي، تأخر لصالح فعلها بسرعة.

وقال آخرون إن الاستراتيجية قائمة على الكلمات الطنانة وتفتقر إلى الجوهر. تبنى القادة العسكريون الأمريكيون نهجًا وصفوه بأنه "واضح، متماسك، مبني"، إذ ستطهر القوات المناطق من المتمردين وتبقى حتى يتمكن مسؤولو الحكومة المحلية وقوات الأمن الأفغانية من تحقيق الاستقرار بالمناطق بتدفق المساعدات.

« ونظرًا لأنهم كانوا يعملون وفقًا لجدول زمني ضيق، حاول القادة الأمريكيون أولاً تطهير المناطق التي ترسخت فيها طالبان بشدة، مثل مقاطعتي هلمند وقندهار في جنوب أفغانستان، وقد أدى هذا النهج إلى نتائج عكسية عندما ألقى المسؤولون الأمريكيون المساعدة في المناطق التي ظلت داعمة لطالبان ولكنها أهملت المناطق السلمية التي انحازت إلى الحكومة في كابول.

وفي مقابلة مع "الدروس المستفادة"، قال مسؤول كبير بالوكالة الأمريكية للتنمية الدولية إن حكامًا مستقرين من مقاطعات مستقرة سيأتون إلى كابول ويسألون: "ما الذي يجب علي فعله للحصول على حب الأمريكيين؟ هل نقوم ببعض الفوضى؟"[2].

---

(1) يستخدم قطاع من الأمريكيين لفظة "ديركا ديركا" للإشارة إلى اللغة التي يتحدث بها المسلمون بالعراق وأفغانستان وما شابههما من البلدان، وبعضهم يصفها بأنها لغة الإرهابيين". المترجم

(2) مسؤول الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، مقابلة الدروس المستفادة، ١٨/١١/٢٠١٦.



وقال نفس المسؤول: "كنا بحاجة إلى الذهاب أولاً حيث المسالمون ونكافئ أصحاب السلوك الإيجابي منهم"، مضيفًا أن الأمريكيين وحلفاءهم بحاجة إلى "تعزيز الأشخاص الذين يتعاونون مع الحكومة، وبذلك يمكننا أن نبرهن عن نجاحنا، ثم نطلب المثل في المناطق غير الآمنة، لكن هذا يستغرق وقتًا كما ينبغي، ونحن لم يكن لدينا وقت أو صبر".

عام ٢٠١٤، مع تراكم الأدلة على أن خطة أوباما كانت متعثرة، أخبرت مسؤولة كبيرة في وزارة الخارجية مقابلات الحكومة أن المهمة كانت غير مركزة منذ البداية.

وقالت الدبلوماسية الكبيرة: "لقد سئمت من قول أوباما: (لقد سئمنا الحرب). ٥٪ فقط من الأمريكيين مشاركون في الحرب، إنها لا تؤثر على معظم الأمريكيين".

وأضافت: "لو كنت مؤلفةً كتابًا، فإن غلافه سيكون: "أمريكا تذهب إلى الحرب دون أن تعرف لماذا تفعل ذلك". "لقد دخلنا بشكل لا إرادي بعد أحداث ١١ سبتمبر دون معرفة ما كنا نحاول تحقيقه. أود أن أكتب كتابًا عن أهمية وجود خطة ونهاية متوقعة".



» **أخبر عشرات المسؤولين الأمريكيين والأفغان الذين أجروا المقابلات أن المشاكل تعكس خللاً أعمق بكثير. على الرغم من سنوات من الحرب، ما زالت الولايات المتحدة لا تفهم ما الذي يحفز أعداءها على القتال.**

قال مسؤول لم تسمه الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية في مقابلة مع الدروس المستفادة عام ٢٠١٦ إن وجود طالبان "كان عرضًا، لكن نادرًا ما حاولنا فهم ماهية المرض".

في مقابلة منفصلة ذلك العام، قال ضابط الشؤون المدنية بالجيش: «من أجل التوضيح، عليك أن تعرف عدوك. أنت لا تعرف عدوك، أنت فقط تدمر ما حولك وتبعد الناس من أمامك".

» **وقال شهم محمود ميخائيل، وهو مسؤول أفغاني كبير يعمل الآن حاكمًا لإقليم نانجاهار، للمقابلات إن هناك طريقة بسيطة لمعرفة ما إذا كانت استراتيجية الولايات المتحدة ناجحة.**



وقال: "أخبرت بتريوس أنك ستفشل في مكافحة التمرد التي لا تعرف فيها صديقك، ولا عدوك ولا البيئة المحيطة". "أخبرته بالتحقق من قائمته التي تحتوي الأشخاص الذين يستحقون القتل أو الاعتقال، وقلت له انظر هل أصبحت أطول أم أقصر؟ لو أصبحت أطول فهذا يعني أن استراتيجيتك قد فشلت".

» **في مارس ٢٠١١، عندما كان قائدًا لقوات الولايات المتحدة وقوات الناتو، قدر بتريوس أعداد مقاتلي طالبان بـنحو ٢٥٠٠٠، وفقًا لشهادة أدلى بها للكونجرس.**

» **اليوم، يقدر الجيش الأمريكي أن العدد قد تضاعف إلى نحو ٦٠،٠٠٠.**

[هنا ينتهي الملف الثاني من تحقيق "أوراق أفغانية.. التاريخ السري للحرب".
ونبدأ في ترجمة الملف الثالث في العدد القادم بحول الله وقوته.]
(المترجم)

ترحب مجلة كلمة حق باستقبال مقالات القراء ، إذ تعمل هيئة التحرير على فرزها ونشر المتميز منها في كـل عدد جديد ، يُرجى إرسال المقالات على البريد التالـي Klmtuhaq@gmail.com

شروط المقال

(١) ألا يكون عاطفيا يخاطب الشعور بل عقلانيا وما أجمل لو يكون خلاصة عملية.

(٢) أن يكون في باب الثورة والمقاومة والكفاح، فذلك واجب الوقت.

(٣) أن يكون عمليًا مفيدا وأحسن ما يكون لو قدم إجابة على سؤال كيف نفعل كذا، أو في الموقف الفلاني ماذا ينبغي أن نفعل، وهو مجال واسع، يكتب فيه السياسي والاقتصادي والقانوني والإعلامي والشرعي الثورات الأمة بحاجة لخبرات في كل هذه المجالات

(٤) أن يكون مكتوبًا باسم صاحبه، لا باسم مجهول ولا بكنية، فلئن كان ثمة ما قد يعرقل نشر الاسم الظروف خاصة ، فيمكن للمجلة أن تحتفظ بالاسم دون نشره لرغبة صاحبه.



klmtuhaq

كلمة حق

السنة **الثالثة** العدد ٣٤ مايو ٢٠٢٠



المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
حامد عبدالعظيم